الفصل الثامن

ملتون

١٦٠٨ — ١٦٧٤

١ — جون بنيان : ١٦٢٨ — ١٦٨٨

فى غمرة التحمس للدين والأخلاق لم يحس البيوريتانيون بالحاجة إلى أدب دنيوى . وكان فى انجيل الملك جيمس الأول (أى الذى ترجم إلى الإنجليزية فى عهده) زاد كاف لهم من الأدب . وبدا كل شىء فيما عداه ، تقريبا ، تافها أو خبثا آثما . وفى ١٦٥٣ اقترح أحد أعضاء البرلمان ألا يدرس فى الجامعات سوى الأسفار المقدسة و «كتاب يوم وما يماثله[1]» . وقد يبدو هذا الأمر مزعجا محزنا ، ولكن يجدر أن نلاحظ أنه فى ذروة هيمنة البيوريتانيين (١٦٥٣) نشر سير توماس اركهارت ترجمته الرائعة لرابليه[*] ، مؤثرا الأدب الداعر المكشوف على الإيمان بالبعث والحساب . وفى العام نفسه أخرج إيزاك والتون كتابه صياد السمك المثالى Compleat Angler كشف فيه عما فى الماء من أسماك ، وحتى فى أيامنا هذه التى نقفز فيها قفزات حكيمة من نوع من السمك إلى آخر ، نجد هذا الكتاب ممتعا فى بساطته وعذوبة أسلوبه ، كما أنه يذكرنا بأنه على حين كانت انجلترا تمر بثورة لا تقل عنفا عن ثورة ١٧٨٩ ، فإن الناس كانوا يستطيعون أن يقصدوا فى هدوء إلى القنوات فى الريف ليصيدوا ويوقعوا فى شراكهم مخلوقا حذرا يقظا .

(*) الكتابان الأول والثانى ١٦٥٣ ، والثالث ١٩٦٣ . واكمل بيير موتيه الترجمة فى ١٧٠٨ .

انحرف قليلا عن الطريق أيها العالم الجليل ، أعرج بنا عن الطريق قليلا حيث يمكن أن نجلس ونغنى عند هذا السياج من الشجيرات الغنية برحيق الأزهار ، حتى تفرغ هـــذه السحابة ماءها على الأرض التى تنبت الزرع(٢) » .

وحافظ أندرو مارفل على حياته بحكمة وتعقل ، طيلة التعديل المستمر فى الحكومات من يوم مولده فى ١٦٢١ إلى يوم وفاته فى ١٦٧٨ ، ورحب بعودة كرومول من أيرلنده فى قصيدة غنائية قوية عذبة ، ولكنه تجرأ فيها على التعاطف مع الملك الفتيل شارل الأول : —

إنه لم يأت بأمر مبتذل أو دنىء ، فى هذا المنظر المشهود ، بل تفحص ببصره الحاد نصل البلطة ، كما أنه ما أهاب بالآلهة فى حنق بذىء لتدافع عن حقه اليائس ، ولكنه حنى رأسه الوسيم ، وكأنه يحنيه على الفراش(٣) .

وأصبح مارفل مساعدا لملتون فى وظيفة سكرتير لكرومول للغة اللاتينية . وانتخب عضوا فى برلمان ١٦٥٩ ، وساعد على انقاذ ملتون من انتقام الملكيين المنتصرين ، وعاش ١٨ عاما فى ظل الملكية العائدة ، واستنكر مباذلها وفسادها وعجزها ، فى قصائد هجاء أحجم فى حرص شديد عن نشرها .

وكتبت روائع جون بنيان ، مثلها فى ذلك مثل ملاحم ملتون ، بعد عودة الملكية . ولكن الرجلين كليهما تشكلا فى ظل النظام البيوريتانى . وهو يقول : « كان منبتى وضيعا حقيرا ، وكان بيت أبى من أحط البيوت مكانة ، وكان موضع أشد الازدراء من الأسرات ممن حولنا(٤) » . وكان أبوه (ممكريا) يصلح القدور والغلايات فى قرية الستو بالقرب من بدفورد . وحصل الوالد ، توماس بنيان ، من مهنته على ما يكفى لإرسال ابنه جوب إلى مدرسة بدفورد حيث تعلم من القراءة والكتابة قدرا كافيا على الأقل « ليتفحص الأسفار المقدسة » ، ويكتب أشهر الكتب الإنجليزية .

وفى القرية اشتغل صبيا لوالده الذى لقنه تعليما شفويا بطريقة السؤال والجواب فى أمسيات أيام الأحد . وعن أولاد المدينة تعلم الكذب والتجديف فى الدين . وهو يؤكد لنا « أنه لم يضارعه إلا القليل فى هذه الأقانين »(٥) . وأكثر من هذا أنه أدين بالرقص وممارسة الألعاب وتناول قدح من الجعة فى إحدى الحانات . وكلها أمور يحاسب عليها البيوريتانيون الذين لم يكونوا قد استولوا بعد على مقاليد الأمور ، فى سني شبابه (١٦٢٨ — ١٦٤٨) . وهو يقول عن نفسه « كنت أتزعم أعمال الرذيلة والشر والفسوق(٦) » ومثل هذه الاعترافات بالخطايا الجسيمة كانت أمرا شائعا مألوفا بين البيوريتانين ، حيث عملوا على جذب أشد الانتباه إلى اصلاحهم الدينى ، وأظهروا قدرة الله على أن يهبهم نعمة الخلاص. ولما انتشرت التعاليم البيوريتانية من حوله ، أغض مضجعه وحد من نزعة الشر عنده ، تفكيره فى الموت وفى يوم الحساب وفى الجحيم . ورأى مرة فيما يرى النائم أن السماء كلها فوقه تضطرم بالنيران وأن الأرض تحته تزلزلت ، فنهض من نومه مذعورا ، وأزعج الأسرة بصرخاته : « يا إلهى ، أسألك الرحمة بى ، وقعت الواقعة ، ولم أعد نفسى ليوم الحساب(٧) » .

وفى سن السادسة عشرة سيق إلى جيش البرلمان حيث خدم لمدة ثلاثين شهرا فى الحرب الأهلية . وهو يقول عن فترة الجندية « لم أكف عن الخطيئة والإثم ، وإزداد تمردى على الله ، وعدم اكتراثى بالخلاص(٨) » . وبعد تسريحه من الجيش تزوج من فتاة يتيمة (١٦٤٨) كان كل صداقها اثنين من الكتب الدينية ، وذكرياتها التى لاتفتأ ترددها عن تقى أبيها وورعه . ومذ خلف جون أباه فى الحانوت ، فأنه استطاع أن يعولها « بالسمكرة » . وازدهرت أحواله ، وتردد على الكنيسة بانتظام ، وتخلى عن نزوات شبابه شيئا فشيئا . وكان يقرأ الكتاب المقدس كل يوم تقريبا، حتى صارت لغته الإنجليزية البسيطة هى لغة بنيان نفسه . وتحدثت قرية الستو عنه على أنه مواطن نموذجى .

ولـكن الشكوك اللاهوتية أرهقته ، كما يقول . ولم يكن على ثقة من أن رحمة الله قد وسعته ، وبدون هذه الرحمة سيلاقى أشد العذاب . وارتاب فى أن معظم أهل الستو وبدفورد سيكون مصيرهم بالفعل إلى نار الجحيم . وأزعجه تفـكيره فى أن معتقداته المسيحية كانت مجرد حـــدث جغرافى . وتساءل فيما بينه وبين نفســه : « ماذا نقول إلا أن الأتراك لديهم كتاب مقدس عظيم ، مثل كتابنا ، يثبت أن رسولهم (محمداً) سوف يكون شفيعا لهم ، كما يجب أن نثبت نحن أن المسيح مخلصنا (٩) ؟ » « لقد غرقت روحى فى بحرين من التجديف على الله والمسيح والأسفار المقدسة ... وثارت فى نفسى التساؤلات عن حقيقة وجود الله وابنه الوحيد الحبيب . وهل يوجد حقا إله أو مسيح ؟ ؟ . وهل كانت الأسفار المقدسة إلا خرافة أو قصـــة بارعة أكثر منها كلمة الله المقدسة الخالصة ؟ (١٠) وانتهى إلى أن هـذه الشـكوك أثارها شيطان يسكن بين جنبيه . « إنى لحظت الـكلب والضفدعة وحسبت ما أعد الله لهما مما جعلهما فى حالة أفضل من حالى بكثير ... لأنهما ليس لهما نفس ترزح تحت وطأة عذاب النار أو الخطيئة ، كما هو محتمل أن تفعل نفسى (١١) » .

وبينما كان يوما فى طريقه إلى الريف مستغرقا فى التأمل فى شرور قلبه تذكر كلمات القديس بولس : « صنع السلام بما سفك من الدم على صليبه (١٢)

« وقويت فى ذهنه فكرة أن للمسيح مات من أجله ومن أجـــل الآخرين » ، حتى كنت مستعدا أن أغرق فى نشوة ... من الحبور والهدوء الحقيقيين (١٣) » . وانضم إلى كنيسة معمدانية (١٦٥٣) فى بدفورد ، وعمد ، وقضى عامين فى حياة تسودها السعادة والهدوء الروحيين ، وفى ١٦٥٥ انتقل إلى بدفود وعين شماسا فى هذه الكنيسة ، وفى ١٦٥٧ كلف بالوعظ ، وكان موضوعه هو رسالة لوثر : ما لم يؤمن المرء إيمانا راسخا بأنه قـد تخلص من جنوحه إلى الإثم بالطبيعة ، بسبب موت المسيح بن الله ،

فإنه لابد بصرف النظر عن فضائله — لاحق بالأكثرية العظمى من البشر الذين يحشرون فى نار جهنم . إن تضحية المسيح المقدسة بنفسه ، هى وحدها التى يمكن أن تعدل جسامة خطيئات الإنسان . وكان من رأيه أن يلقن الأطفال هذا الأمر فى وضوح تام : —

فى اعتقادى أن الناس يسلكون طريقا خاطئا فى تعليم أبنائهم العبادة ويبدو لى أنه من الأفضل أن ينبىء الناس أطفالهم ، فى وقت مبكر ، وقبل فوات الأوان ، أية مخلوقات بغيضة لعينة هم ، وكيف أنهم يبوؤون بغضب من الله ، بسبب الخطيئة الأولى الأصلية الفعلية ، كما يظهرونهم على طبيعة غضب الله ، وخلود البؤس والشقاء (١٤) .

ووسط هذه النصائح والتحذيرات ، ضمت مواعظ بنيان كثيراً من الآراء الحكيمة فى تنشئة الأطفال ومعاملة المستخدمين ، وكان مثل غيره من الوعاظ ، عرضة لتحديات الكويكرز ، الذين قالوا إنه ليست الأسفار المقدسة ، بل النور الداخلى هو الذى يهىء المعرفة والخلاص . وفى ١٦٥٦ وضع كتابين هاجم فيهما الطائفة الجديدة المزعجة . فكان جوابهم أنهم اتهموه بأنه يسوعى ، قاطع طريق ، زان ساحر(١٥) . أما أسوأ الشدائد فقد حلت عليه بعودة الملكية ، فقد جدد القانون القديم الذى صدر فى عهد اليزابث والذى قضى بحضور كل الانجليز الصلوات الأنجليكانية دون غيرها ، وأذعن بنيان إلى حد إغلاق مكان اجتماعاته الخاص فى بدفورد ، والتقى بجمهور المصلين فى أماكن خفية وألقى عليهم مواعظه ، فاعتقل ، وعرض عليه إطلاق سراحه إذا وعد بألا يعظ علانية . فرفض وأودع سجن بدفورد (نوفمبر ١٦٦٠) ، وهناك قضى اثنى عشر عاما ، مع بعض فترات تمتع فيها بحرية محدودة . وتجدد فى أوقات متفرقة عرض الإفراج عنه ، بنفس الشروط ، مثيراً نفس الرد : « إذا أطلقتم سراحى اليوم فسأشرع فى الوعظ غداً (١٦) » .

وربما أصبحت حياة الأسرة عبئا ثقيلا ، لقد توفيت زوجته الأولى فى ١٦٥٨ تاركة له أربعة أطفال أحدهم أعمى ، وكانت الثانية حاملا • وعاون الجيران فى إقامة أود الأسرة ، وأسهم بنيان فى نفقاتها بصنع بعض المحرمات فى السجن وتدبير أمر بيعها ، وأجيز لزوجته وأولاده أن يزوروه كل يوم كما أجيز له أن يعظ رفاق السجن ، وأن يغادر السجن متى شاء ، حتى للسفر إلى لندن (١٧) • ولكنه استأنف الوعظ سراً فضيقوا عليه الخناق فى السجن • وفى المعتقل قرأ الكتاب المقدس المرة تلو المرة ، كما قرأ كتاب فوكس « سجل الشهداء » ، وأذكى حرارة الإيمان عنده بمحارق الأبطال البروتستانت ، ووجد متعة عظيمة فى رؤى سفر الرؤيا ، ولابد أنه كان مزوداً بالقلم والقرطاس ، لأنه فى السنوات الست الأولى من احتجازه كتب ست قطع دينية ، كما وضع مؤلفه العظيم « الرحمة تتسع لكبير الخطائين » • وهو سيرة حياته الروحية ، وهو رؤيا تكاد تكون مفزعة من رؤى العقل البيوريتانى •

وفى ١٦٦٦ • وفى ظل « الإعلان الأول للتسامح » الذى أصدره شارل الثانى ، أطلق سراح بنيان فعاود الوعظ فأعيد إلى السجن • وفى ١٦٧٢ أجاز « الإعلان الثانى للتسامح » الذى أصدره شارل الثانى ، للقساوسة المنشقين أن يلقوا المواعظ ، فأفرج عن بنيان ، وانتخب على الفور راعيا للكنيسة القديمة • وفى ١٦٧٣ أبطل العمل باعلان التسامح ، وتجدد تحريم الوعظ على المنشقين ، فلم يمتثل بنيان له ، وأعيد إلى السجن (١٦٧٥) ، ولكن سرعان ما أخلى سبيله •

وفى هذه المرحلة الثالثة والأخيرة كتب بنيان الجزء الأول من « انطلاق الحجيج من هذه الدنيا إلى العالم الثانى » ، وقد نشر هذا الجزء فى ١٦٧٨ وأعقبه الجزء الثانى فى ١٦٨٤ . (فى مقدمة شعرية مضحكة رديئة غير معقولة زعم بنيان أنه كان قد وضع هذا الكتاب ملهاة وتسلية لنفسه دون أن يفكر فى نشره) وعرض القصة ، فى لطف ، فى صيغة وهم أو

خيال جامح .

« بينما كنت أضرب فى فيافى هـذا العالم ، جئت إلى مكان معين حيث كانت ثمة « خلوة » فتمددت فى هذا المكان لأنام ، وإذ غلبنى النعاس رأيت فيما يرى النائم حلما (١٨) » .

إن كريستيان استبد به فى هذه الرؤيا . التفكير فى أنه يجب عليه أن يتخلى عن كل شىء وينسى كل شىء ، وألا يلتمس سوى المسيح والجنة . فيهجر زوجته وأولاده ، ويبدأ رحلته إلى « المدينة السماوية » . ويلحق به « للوحى بالأمل Hopeful » الذى يعبر عن العقيدة البيوريتانية فى إحكام بارع :

كنت يوما فى حزن شديد ، أحسب أنه أشد مالقيت فى حياتى . ونتج هذا الحزن عن رؤية صادقة لجسامة آثامى وفظاعتها ، ولما كنت آنذاك لا أفكر فى شىء إلا الجحيم والعذاب المقيم . فإنى فجأة ، وأنا غارق فى التفكير ، رأيت يسوع المسيح ينظر إلى من علياء السماء ، قائلا : « آمن بيسوع المسيح وسيكتب لك الخلاص (١٩) » . ولكنى أجبته : إنى خطاء كبير خطاء كبير جداً ، فأجاب « رحمتى تتسع لك » ... وهنا غمرنى الفرح (٢٠)

وبعد شىء كثير من المحنة والنزاع يصل الحجيج إلى « المدينة السماوية » فندرك هذ الذى كانوا يأملون فيه فى حماسة بالغة :

ومن عجب أنهم حين دخلوا ، تغيرت هيئتهم وأحاطت بهم هالة من الجلال ، وارتدوا ملابس بدت وكأنها من ذهب . كما كان هناك من قابلهم بالقيثارات والتيجان وأعطاهم إياها — القيثارات — لترتيل آيات المدح والثناء والتيجان رمز للتكريم والتشريف ، وانظر ، ان « المدينة السماوية » يتألق نورها وكأنه ضياء الشمس ، والشوارع مكسوة أرضها بالذهب ، وفيها سار خلق كثير تعلو رؤوسهم التيجان ويمسكون بأغصان الغار فى أيديهم ، ومعهم قيثارات من الذهب ينشدون عليها ترانيم الثناء والشكر (٢١) .

أما « الجهل المسكين » الذى تبعهم ، متعثرا فى عرجه ، دون أن يتزود بالإيمان الصادق ، فإنه يأتى إلى أبواب « المدينة السماوية » ، ويطرقها ، فيسأل عن جواز مروره فلا يجده ، فيلقى به فى الجحيم(٢٢) — إن القصة تروى بشكل جذاب ، ولكننا نعطف أحيانا على « العنيد » الذى يقول عن المسيحى ورفاقه ، « هناك فئة من هؤلاء المخبولين المغرورين الذين ، حين يمسكون بطرف من الخيال ، يظنون أنهم أعقل حتى ممن يستطيعون تحكيم عقولهم(٢٣) » .

أن فكرة حج النفس من نطاق المغريات الدنيوية إلى نعيم الآخرة ، فكرة قديمة ، وتلك كانت صفتها المجازية فى العصور الوسطى ، ويحتمل أن بنيان كان قد قرأ بعضا من هذه الكتب(٢٤) . وجر النسيان ذيوله الآن عليها فى عمرة النجاح الخارق الذى لاقته القصة الجديدة ، حيث صدر منها تسع وخمسون طبعة فى المائة العام الأولى من ظهورها ، وبيع منها مائة ألف نسخة قبل وفاة بنيان . وبيع منها ملايين من النسخ منذ هذا الوقت ، وترجمت إلى ١٠٨ من لغات أمريكا البيوريتانية . وكانت تقتني فى كل بيت تقريبا . ودخلت منها إلى الحديث الدارج عبارات كثيرة — (سلمخ) التخلص من الجزع ، غرور إلدنيا رجل الدنيا الحكيم . وفى القرن العشرين فقد الكتاب شعبيته بسرعة ، حيث لم يعد للخلق البيوريتانى وجود ، ولم يعد هناك ايمان بما جاء فى الكتب ولم يعد يقتنى ، ولكنه لايزال فيضا من اللغة الإنجليزية البسيطة العذبة الواضحة .

وضع بنيان نحو ستين كتابا ، وليس ثمة ما يدعو اليوم إلى قراءتها . وبعد إطلاق سراحه للمرة الأخيرة ١٦٧٥ أصبح واحداً من ألمع الوعاظ فى عصره ، والزعيم المعترف به لطائفة المعمدانيين فى انجلترا . وأبدى إعجابه بشارل الثانى . وأمر أتباعه بالولاء والإخلاص لملك أسرة ستيوارت بوصفه درع انجلترا وحاميها ضد البابا (٢٥) . وبعد انقضاء ثلاث سنوات على إعلان شارل الثانى اعتناقه الكثلكة وهو على فراش الموت ، أنهى

بنيان رسالته ، ومن الغريب أن نهايته كانت مثل نهاية لوثر . ذلك أنه حدث فى ريدنج (مدينة فى وسط انجلترا) نزاع باعد بين والد وولد كان بنيان حولها بهما ، فسافر إليهما على ظهر جواد من بدفورد • فأصلح بين الفريقين المتخاصمين ، ولكنه عندما قفل راجعا على ظهر جواده ، فاجأته العاصفة وبللته قبل أن يعثر على مأوى يعصمه منها ، وانتابته حمى لم يبل منها قط . ووري التراب فى مقبرة للمنشقين فى بنهل فيلدز (Bunhill Fields) حيث يرقد حتى اليوم مع شاهد حجرى على قبره •

الشاعر الشـــــاب ١٦٠٨ - ١٦٤٠

كان جد ملتون كاثوليكيا حكم عليه فى ١٦٠١ بدفع غرامة قدرها ستون جنيها لتغيبه عن الصلوات الأنجليكانية ، وحرم ابنه من الميراث لأنه تخلى عن الكنيسة الرومانية . أما جون ملتون ، الذى تبرأوا منه وأنكروه فقد حصل على قدر لا بأس به من المال بوصفه كاتبا عموميا فى لندن ، صاحب قلم برع فى كتابة أو نسخ المخطوطات والوثائق والمستندات القانونية • وأولع بالموسيقى ، ونظم القصائد الغزلية القصيرة ، واحتفظ فى داره بكثير من الآلات الموسيقية ومن بينها أرغن ، وانتقل هذا الانعطاف نحو الموسيقى إلى الشاعر الذى ربما أقر بأن المرء لكى يجيد الكتابه ، لابد أن تتغلغل الموسيقى فى نفسه ، وأن تكون له أذن موسيقية واعية • أما الأم ، ساره جفرى ، فكانت ابنة خياط تاجر ، أنجبت لزوجها ستة أبناء كان صاحبنا جون ثالثهم • أما أخوه الأصغر فأصبح ملكيا يدين بالولاء لأسرة ستيوارث ، وواحدا من رجال الكنيسة التقليدية . على حين أن جون أصبح جمهوريا بيوريتانيا من أنصار كرومول . وكان البيت فى « برد ستريت » مؤسسة بيوريتانية تقية مخلصة ، ولكن غير متزمتة ، فان حب الجمال الذى ساد عصر النهضة ، امتزج هنا بالنزوع إلى الخير والفضيلة ، الذى أتى به الإصلاح الدينى .

واشترى جون الأكبر عقارا ، وأثرى، واستخدم معلمين (بيوريتانيين) من أجل جون الأصغر ، وأرسله فى سن الحادية عشر إلى مدرسة سانت بول . وهناك تعلم الصبى اللاتينية واليونانية والفرنسية والإيطالية وبعض العبرية ، وقرأ شكسبير ولكنه آثر عليه سبنسر . وأنا لاحظ ، عابرين ، أنه تأثر كثيرا بالترجمة الإنجليزية لكتاب « الأسبوع » لمؤلفه دى بارتاس (١٥٧٨) ، وهو عبارة عن ملحمة تصف خلق الدنيا فى سبعة أيام :

كان بى نهم شديد إلى العلم والمعرفة ، إلى حد أنى ، منذ بلغت الثانية عشرة كدت لا أترك الكتاب أبداً ، ولا آوى إلى النوم قبل منتصف الليل . وهذا أدى فى الأساس إلى فقد بصرى . وكانت عيناى (مثل عينى أمه) ضعيفتين بطبيعتهما ، وكنت عرضة للإصابة بالصداع كثيرا ، ولكن هذا على أية حال لم ينقص من حبى للاطلاع ، ولم يعوق تقدمى فى التحصيل(٢٦) .

وفى سن السادسة عشرة انتقل إلى كريست كولدج فى كمبردج . وهناك أدى نزاعه مع أحد المدرسين إلى التضارب والتلاكم بالأيدى . وأحس صمويل جونسون « بالخجل حين أروى ما أخشى أن يكون حقيقة ، وهى أن ملتون كان من أواخر من وقعت عليهم العقوبة البدنية من طلبة الجامعتين كلتيهما »(٢٧) » . وطرد لمدة فصل دراسى واحد ثم سمح له بالعودة ، وكان بالفعل ينظم شعرا جيدا . وفى ١٦٢٩ ، وهو فى الحادية والعشرين ، نظم قصيدة غنائية رائعة فى الاحتفال « بصبيحة عيد الميلاد » . وبعد ذلك بعام واحد ، نظم قصيدة من ستة عشر بيتا ، احياء لذكرى شكسبير ولتنقش على قبره ، وقد ووفق بعد ذلك على نشرها فى الطبعة الثانية لأعمال شكسبير : —

ماحاجة شكسبير العزيز إلى جهد جيل فى إقامة أحجار مكومة لعظامه المكرمة ، أو لإخفاء رفاته المقدسة تحت هرم يشير إلى النجوم ؟

أيها العزيز الذى لايغيب عن الذاكرة ، أيها العظيم سايل الشهرة ، ماذا

يريد من شاهد هزيل على اسمك الرنان(*) .

وقضى ملتون فى كمبردج ثمان سنوات ، وحصل على درجة البكالوريوس فى ١٦٢٨ ، والماجستير فى ١٦٣٢ . ثم تركها دون أن يحس بالولع المعهود فى المتخرجين بحضور يوم الكلية التى تخرجوا فيها . وكان أبوه يتوقع أن ينخرط فى سلك الخدمة الكهنوتية . ولكن الشاب المغرور أبى أن يقسم يمين الولاء للمذهب الأنجليكانى وطقوسه الدينية : —

ومذ رأيت كيف غزا الطغيان الكنيسة — بمعنى أن الذى يرسم قسيسا يجب أن يتعهد بأن يكون عبدا رقيقا ، وفوق ذلك يقسم اليمين الذى لو لم يلتزم به إلتزاما يبعث على الضجر فإنه أما أن يحنث فى يمينه أو يرائى فى إيمانه — فأنى وجدت من الأفضل ايثار الصمت البرىء أمام الوظيفة المقدسة ، وظيفة الكلام والوعظ ، التى تشترى بالعبودية والقسم الكاذب(٢٩) .

وآوى ملتون إلى بيت والده الريفى فى هورتون بالقرب من وندسور ، ومن الواضح أن والده تولى الانفاق عليه هناك ، وتابع هو دراساته ، القديمة بصفة أساسية ، إلى أن ألم حتى بأصغر المؤلفين اللاتينيين شأنا . وكتب قصائد باللغة اللاتينية ، أثنى عليها كاردينال كاثوليكى . وسرعان ماجعل دفاعه باللاتينية عن سياسة كرومول يرن صداه فى أنحاء أوربا . وحتى حين كتب نثرا بالإنجليزية ، فأنه كتب باللاتينية حيث كان يخضع الإنجليزية لتقديم وتأخير وتعقيدات والتواءات كلاسيكية ، ولكنه كان يكتب فى لغة غريبة ساحرة رنانة .

ويحتمل أنه فى هورتون وسط الحقول المورقة والخضرة فى الريف الإنجليزى ، كتب القطع المزدوجة ، التى خلدت ذكرى الابتهاج الخالى من

(*) يؤسفنا أن نضيف أنه لما وكل إلى ملتون مهمة الدفاع عن اعدام شارل الأول ، ذكر من بين المساوىء التى تلطخ ذكرى هذا الملك اعتزازه وولعه بشكسبير(٣٨) .

الهم ، ونوبات الكآبة فى شبابه العابر ، سواء بسواء . إن كل سطر من « Allegro » يطالب بأن يتغنى به الناس . و « اللجرو » هى « الإبنة الجميلة . للممتلئة الجسم ، المرحة اللطيفة ، المولودة من « زفير » الريح الغربية العليلة وهى تداعب أورورا الفجر » أن كل شىء فى مشهد الريف يدخل الآن البهجة على قلب الشاعر : القنبرة تشق سكون الليل ، الديك يختال فى مشيته أمام دجاجاته ، الكلاب تقفز عند سماعها بوق الصياد ، شروق الشمس « فى أشعة وضاءة فى لون الكهرمان » (أصفر ضارب للحمرة) ؛ بائعة اللبن التى تغنى والقطعان التى تلوك غذاءها ، ورقص الشبان والشابات على الحشائش ، والأمسيات بجوار المدفأة أو فى المسرح :

إذا مثل بن جونسون احدى تمثيلياته الراقية أو صدح شكسبير الشاعر المذهب القوى الخيال بألحان الغابة الشعبية الفطرية الموسيقى .

وتفك الأغلال التى تقيد روح التآلف والانسجام الخفية ، إنك إذا استطعت أيها المرح أن توفر لى هذه المباهج كلها ، فإنى أود أن أحيا معك .

وحتى الآن لم يكن ثمة بيوريتانى متجهم عبوس مكتئب ، بل شاب إنجليزى مفعم بالصحة يجرى فى عروقه بعض دم شعراء عصر اليزابث .

ولكن طرأ بين الحين والحين مزاج آخر ، حتى بدت هذه المسرات تافهة للعقل المفكر ، حين يتذكر المأساة (التراجيديا) ، ويفتش عن مغزى ، ولا يجد فى الفلسفة إجابات ، بل تساؤلات لم يحس بها من قبل . عندئذ يأتى « Il Penseroso » المفكر : يسير دون أن يراه أحد :

حيث يرى القمر المتجول ، راكبا قرب الظهيرة ، وكأنه رجل ضل الطريق ، عبر السموات المترامية الأرجاء الخالية من المسالك .

أو يجلس وحيدا إلى جانب المدفأة :

حيث الجمرات المتوهجة فى الغرفة تعلم الضوء كيف يكتسى بالظلمة بعيدا عن أى مصدر للابتهاج والفرح ، اللهم إلا صرار الليل على الموقد .

أو أنه تابع « فى برج عال منعزل » ، تغلبت عليه النجوم ، يقلب صفحات أفلاطون ، ويتساءل أين المساء .

أية عوالم وأية أقطار شاسعة تتسع لهذا العقل الخالد الذى تخلى عن قصره فى زاوية من جسده .

أو هو يتذكر مآسى العشاق والميتات الحزينة للملوك . وخير من هذه الفلسفة الصارمة هناك « صحن الدير الذى يعج بالجهد والجد فى العمل والدرس » فى الكاتدرائية الكبرى ، ونوافذها التى تروى مشاهد التاريخ وضوئها المظلل :

فليعزف الأرغن المجلجل ، للمرتلين ذوى الأصوات الممتلئة أدناه ، فى أصوات عالية وترنيمات صافية ، فلربما غمرتنى عذوبة الأنغام فى أذنى بنشوة ، وأبرزت كل السموات أمام ناظرى » .

تلك هى المتعة والمسرات التى يجدها « الرجل المفكر » ، وإذا بدت مرتبطة بالكآبة ، فان الشاعر سيقضى حياته مع الكآبة . ففى هاتين القصيدتين البهيجتين ، يكشف ملتون عن ذاته وهو فى الرابعة والعشرين ، شابا تتحرك مشاعره لكل مافى الحياة من جمال ، ولايجد حرجا فى المسرات والملذات ، كما وجد التفكير المحير فى الحياة والموت طريقه إلى نفسه فتأثر به ، كما أحس بالصراع بين الدين والفلسفة يحتدم بين جوانحه .

وحانت أول فرصة ليبرز فيها الشاعر ويذيع صيته فى ١٦٣٤ حين كلف بكتابة مسرحية ريفية يمثلها ممثلون مقنعون فى الاحتفالات بتولية ارل برد جووتر رئيسا « لمجلس الغرب » . ولحن هنرى لاوس الموسيقى التصويرية . أما شعر ملتون فكان مجهولا اسم مؤلفه تواضعا . وكان موضع ثناء واطراء إلى حد أنه حمل على الاعتراف بأنه مؤلفه . واطراه سير هنرى وتون قائلا : فى أغانيك وقصائدك رقة دورية (نسبة إلى الدوريين الذين غزوا بلاد الأغريق فى القرن ١٢ ق . م) لم أر لها مثيلا فى لغتنا حتى اليوم(٣٠)

« وكان عنوان القطعة فى الأصل » مسرحية فى قصر لدلو (فى شروبشير) » أما اليوم فهى تسمى « كومس Comus » (المسرحية) وقد مثلها اثنان من صغار النبلاء مع شقيقتهما ، وكانت فتاة فى ربيعها السابع عشر ، من وصيفات الملكة هنريتا ماريا . وعلى الرغم من أن معظم المسرحية كان شعرا مرسلا غير مقفى ، محشوا بالأساطير ، فقد كانت زاخرة بالغناء العاطفى المرح والأناقة الرائعة الشجية : وتميزت ببراعة لم تتكرر فى شعر ملتون فيما بعد وكانت الفكرة الرئيسية فكرة تقليدية : عذراء فاتنة ، تتجول فى الغابات على غير هدى ، وهى تشدو : « بأغنيات ربما خلقت نفسا من تحت براثن الموت » .

ويدنو منها الساحر « كومس » ويقرأ عليها تعويذة حتى تتخلى عن عفتها ، ويتوسل إليها أن تلهو معه ، وقد تألقت نضارة وشبابا ، فتندافع الفتاة ، فى فصاحة بالغة عن الفضيلة وضبط النفس و « الفلسفة السماوية » ، وجرت كل الأبيات على خير وجه . فيما عدا قطعة ربما كانت مشئومة ، أشارت إلى « الجمهورية » ، كان من المحتمل أن تؤدى بهذا الجمع الحاشد المسرف النفور والاستياء :

إذا كان لكل رجل منصف ، يصيبه الآن الهزال والنحول تحت وطأة العوز قدر متواضع يليق به ، من هذا الترف الفاجر الذى تنعم به الآن فئة قليلة فى إسراف بالغ ، لتوزعت كل خيرات الطبيعة توزيعا عادلا فى أنصبة متساوية غير زائدة عن الحاجة ، ولما اختزنت الطبيعة مثقال ذرة هذه الخيرات(٣١) .

وفى ١٦٣٧ اعتل مزاج الشاعر وتكدر صفو حياته بغرق صديقه الشاب ورفيقه الشاعر إدوارد كنج . وأسهم ملتون فى كتاب تذكارى عن كنج ، بقصيدة رثاء « ليسيداس Lycidas » منظومة فى شكل رعوى مصطنع محشوة بالآلهة الموتى ، ولكنها غنية بالأبيات التى لاتزال تحلق فيها الذكرى الحبيبة .

وا أسفاه ماذا يحملنا على أن نرهق أنفسنا بهذا الهم المقيم ، فى النهوض بصنعة الراعى (نظم الشعر) البسيطة المحتقرة ، وللتأمل بكل ما أوتينا من قوة فى ربة الشعر الجحود ؟ . أما كان من الخير ، كما يفعل الآخرون ، أن يلهو ويلعب مع الراعية أما ريلاس فى الظل ، أو يعبث بخصلات شعر « نيرا » . أن الشهرة هى الحافز الذى يثير الروح الصافية وهى آخر الوهن فى العقل الرفيع) ، ليزدرى بالمباهج ، ويكد ويشقى طوال أيامه . ولكن حين نأمل فى الحصول على الجزاء الوفاق . وتفكر فى الانطلاق إلى الوهج الخاطف تأتى « الروح العمياء » (ملك الموت) بآلاتها البغيضة ، لتقضى على الحياة الواهنه الخيوط .

ويبدو أن جون ملتون الأكبر (الوالد) أحس بأن ست سنوات من الإنصراف إلى العمل فى روية وأناة فى هورتون كانت جزاء وفاقا للموهبة التى أبدعت مثل هذه القطع الغنائية . وليكمل حسن صنيعه أرسل ابنه ليتجول فى أنحاء القارة مع دفع كل النفقات . وغادر ملتون انجلترا فى أبريل ١٦٣٢ يرافقه خادم . وقضى بضعة أيام فى باريس (وكانت آنذاك تحت قبضة ريشليو العسكرية) ، وأسرع إلى إيطاليا ، حيث أقام شهرين فى فلورنسة ، زار خلالها جاليليو الكفيف نصف السجين ، وألتقى برجال الأدب ، وجاس إلى الجامعيين ، وتبادل معهم التحية فى شعر باللاتينية ، ونظم بالإيطالية قصائد السونيت ، وكأنه نشأ وترعرع على ضفاف نهر أرنوا أو نهر بو . وفى نابلى استقبله ورحب به وكرمه نفس المركيز مانسو الذى صادق وناصر تاسو وماريني من قبل وقضى فى روما أربعة أشهر ألتقى فيها ببعض الكاردينالات المثقفين وأحبهم ، ولكنه أعلن بصراحة مذهبه البروتستانتى . ثم عاد إلى إلى فلورنسة ، ثم قصد إلى البندقية عبر بولونيا وفيرارا ، ثم ذهب إلى فينيس عبورا بمدينة فيرونا وميلان ثم قفل راجعا إلى لندن مرورا بجنيف وليون وباريس (أغسطس ١٦٣٩) .

وفى كتاباته الأخيرة دون قطعتين مشهورتين عن رحلته فى إيطاليا .

وكتب ردا على تعريض أحد الخصوم به : « أشهد الله أنه فى كل تلك الأماكن التى لاتلقى فيها الرذيلة إلا أيسر الاستنكار والتثبيط ، وترتكب فى أقل خجل وأيسره ، لم أحد أنا قط عن جادة الفضيلة والنزاهة (٣٢) » . ويتذكر كيف امتدح النقاد الايطاليون شعره :

وهكذا بدأت أوافق كل الموافقة على ماذكره هؤلاء النقاد الايطاليون أو يقول نفر من أصدقائى هنافى بلدى ، كما استمع بنفس القوة إلى استحثات داخلى ينمو بين جوانحى كل يوم ، من أنه بالعمل الجاد والانكباب على الدرس (وهذا ما اعتبره قدرى فى هذه الحياة) بالاضافة إلى الميل الطبيعى ، بهذا كله يمكن أن أخلف شيئا مكتوبا للأجيال القادمة ، قد لا يرتضون أن يفنى (بل يبقى ويخلد على الزمن) (٣٣) .

وبدأ ملتون الآن يخطط لملحمة تخلد ذكر وطنه وعقيدته ، وتخلد اسمه على مر القرون . وكان لزاما أن تمضى الآن عشرون سنة قبل أن يتمكن من البدء فيها ، وتسع وعشرون سنة قبل أن يتمكن من نشرها . وفيما بين فترتى نظمه الشعر : الفترة الأولى (١٦٣٠ — ١٦٤٠) والثانية (١٦٥٨—١٦٦٨) ، لعب دورا فى الثورة الكبرى ، وسخر قلمه للحرب والنشر .

٣ — المصلح : ١٦٤٠ — ١٦٤٢

فى ١٦٣٩ استأجر ملتون مسكنا لرجل أعزب فى « سانت بريد تشير شيارد » فى لندن ، حيث تولى التدريس لأبناء أخته . وبعد سنة واحدة انتقل معهم إلى أولد رزجيت ستريت » ، وهناك (١٦٤٣) استقبل عددا آخر من التلاميذ بين سن العاشرة إلى سن السادسة عشرة آواهم وعلمهم ، وحصل من ذلك على دخل متواضع يكمل به المبلغ الذى خصصه له والده . وفى كتاب إلى « مستر هارتلب (١٦٤٤) صاغ ملتون آراءه فى التعليم . فأتى لهذه اللفظة بتعريف قوى رائع : « أقول أن التعليم التام الواسع هو الذى يعد الانسان لينهض ، بحق ومهارة ورحابة صدر ، بكل مهامه الخاصة

والعامة ، فى السلم والحرب ، سواء بسواء[٣٤] » وأول واجب على المعلم هو أن يغرس الخلق القويم فى نفس التلميذ ، « ويصلح ماأفسده آباؤنا الأولون » — أى أن يقهر نزعة الشر الطبيعية فى الانسان (الخطيئة الأولى) — أو (كما يجدر بنا أن نذكر الآن) أن يعيد تكييف الخلق القومى الذى سبق تشكيله وفقا لحاجات مرحلة الصيد ، نقول تكييفه تبعا لمتطلبات حياة المدنية الحالية » . وأحس ملتون أن هذا يمكن تحقيقه على خير وجه بأن نغرس فى الذهن الناشىء إيمانا قويا بالله واحد بصير ، وأن نعوده على ضبط النفس وفقا لنظام رواقى (التحرر من الانفعال ، عدم التأثر بالفرح أو الترح ، الخضوع دون تذمر لحكم الضرورة) وضرب لتلاميذه مثلا يحتذونه : « الدراسة الشاقة والطعام اليسير » . فقلما أجاز لنفسه يوما « للهو والمتعة[٣٥] وبعد الدين والأخلاق ، يجب أن تأتى الدراسات اللاتينية والأغريقية القديمة ، والتى لم يستخدمها ملتون مجرد نماذج للأدب ، بل وسائل لدراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والقانون والأخلاق والفسيولوجيا والطب والزراعة وهندسة العمارة ، والخطابة والشعر والفلسفة واللاهوت . وإذا كان هذا التوفيق الفريد بين العلم والانسانيات قد أفترض أن النزر اليسير قد أضيف إلى العلم منذ سقوط روما ، فيجب أن نلاحظ أن هذا حقيقى فعلا ، اللهم إلا بالنسبة لجاليليو ، بل أن كوبر نيكس نفسه كان له سلفه الأغريقى فى شخص أرستار خوس . وفوق ذلك ، اقترح ملتون تعريف تلاميذه كذلك ببعض النصوص الحديثة فى العلوم والتاريخ ، ل حتى ببعض النماذج الحية فى الفنون العملية ، وكان يأمل فى أن يستقدم إلى حجرات الدراسة صيادين وبحارين وبستانيين ومشتغلين بالتشريح وصيدلين ومهندسين ومعماريين ، لينقلوا إلى التلاميذ أحدث ألوان المعرفة فى هذه المجالات[٣٦] وخصص وقتا كافيا للموسيقى والتمثيل ، وساعة ونصف الساعة يوميا للرياضة البدنية والتدريب العسكرى . ويمكن أن يطوف طلابه أرجاء البلاد فى جماعات على صهوات الجياد ، يرافقهم أدلاء معروفون

بالرزانة والحصافة ، ليتعلموا و يلاحظوا ، « أو » يلتحقون بالبحرية بعض الوقت ليتعلموا الملاحة ومصارعة البحر ، وأخيراً وبعد بلوغهم سن الثالثة والعشرين ، يمكنهم أن يسيحوا خارج انجلترا . وهذا برنامج شاق ، ليس لدينا دليل على تطبيقه تطبيقا كاملا فى مدرسة ملتون ، ورعا كان فى حيز الامكان تطبيقه لو أن التلاميذ اقتبسوا من معلمهم شيئا من غيرته وجده .

وراوده أحياناً حلم إنشاء أكاديمية تنافس أكاديمية أفلاطون وأرسطو . ولكنه افتتن بأحداث العصر البارزة وانشغل بها . من ذلك أن التئام البرلمان الطويل (١٦٤٠) كان نقطة تحول فى حياته ، بل يكاد يكون تحولا عنيفاً غير طبيعى عن الشعر والتعليم إلى السياسة والاصلاح . وفى ١١ ديسمبر قدم حزب « الجذر والفرع » البيوريتانى الذى انتسب إليه بعض أصدقائه قدم إلى البرلمان عريضة صارخة مهورة بخمسة عشر ألف توقيع (يحتمل أن يكون من بينهم ملتون) يلتمسون فيها اقصاء الأساقفة عن الكنيسة الانجليزية . ورد جوزيف هول أسقف اكستر على العريضة « باحتجاج متواضع إلى المحكمة العليا فى البرلمان » (يناير ١٦٤١) ، دافع فيه عن النظام الأسقفى بأنه مأخوذ عن « عصر الرسل الأبرار بلا انقطاع ... حتى العصر الحاضر(٣٨) » فاستل خمسة من الكهنة للشيخيين أقلامهم فى « الرد على الاحتجاج المتواضع » (مارس ١٦٤١) وقعوه باسم مستعار مكون من الأحرف الأولى من أسمائهم(*) . ورد الأسقف هول وبعض الأسقفيين الآخرين ، وأقر مجلس العموم الافتراح ، ورفضه اللوردات . واشتد الجدل على المنابر وفى الصحف وفى البرلمان ، وانضم ملتون إلى المعمعة بكتيب من تسعين صفحة « إصلاح يمس نظام الكنيسة فى انجلترا (يونية ١٦٤١) .

وفى عبارات قوية لاهثة ، استوعب بعضها نصف صفحة ، عزا ملتون تدهور الكنيسة الرسمية إلى سببين : الابقاء على الطقوس الكاثوليكية ،

(*) هم ستيفن مارشال ، ادموند كالامى ، توماس يتج ، ماتيو نيوكومن ، وليم سبرستو .

واحتكار الأساقفة لسلطة تعيين القساوسة . وهزأ ملتون « بهذه الطقوس الفارغة التى لا معنى لها ، والتى تحتفظ بها الكنيسة لمجرد أنها علامة خطيرة للإنزلاق نحو رومه ، والتى لا تستخدم إلا كمجرد مسرحية تعرض أبهة الأساقفة(٣٩) » . إن الأساقفة — كانوا يتسللون خلسة إلى الكاثوليكية فى طقوسهم — وتلك طعنة صريحة لرئيس الأساقفة لود الذى كان قد قدمت له قيمة الكاردينالية . وأنكر ملتون مازعمه جيمس الأول وشارل الأول من أن الأساقفة ضرورة لازمـــة لحكومة الكنيسة والنظم الملكية . وأهاب بالاسكتلنديين المشيخيين أن يواصلوا حربهم القديمة ضد النظام الأسقفى ، وتضرع إلى الثالوث الأقدس أن يرعى المصلحة العامة :

يا الهى : أول عنايتك لكنيستك البائسة التى كادت تنهار وتلفظ أنفاسها الأخيرة ، لا تتركها هكذا فريسة لتلك الذئاب المزعجة التى تترص وتفكر طويلا لتلتهم قطيعك الوديع ، تلك الخنازير البرية التى سعت على كرمتك ، وتركت بصمات حوافرها المدنسة على نفوس عبادك . لا تدعهم ينفذون خططهم اللعينة التى تقف الآن على مدخل الهاوية غير ذات القرار ، مترقبة أن يفتح الحارس ويطلق الجراد والعقارب الفتاكة ، لتحتوينا فى ظلام جهنم الدامس ، حيث لن تشرق علينا بعده شمس حقيقتك ، ولن نعود نأمل فى بزوغ الفجر البهيج ، أو نسمع زقزقة العصافير فى الصباح(٤٠) .

واختتم هذه العبارة بإلقاء جماعه الطقوس التقليدية فى الجحيم :

ولكن أولئك الذين يتوقون إلى مناصب الحكم الرفيعه والارتقاء هنا فى هذه الدنيا ، على حساب إفساد عقيدتهم الحقه والانتقاص منها ، وعلى حساب كروب بلدهم واستعباده ، لابد أنهم ، بعد خاتمه مزرية فى هذه الحياة (التى وهبهم الله إياها) ، سيلقى بهم فى الدرك الأسفل من النار ، وهناك يتلقاهم من سبقهم من المحكوم عليهم بالهلاك الأبدى ، فيتحكمون فيهم فى حقد وحسد ، ويطأونهم بأقدامهم ويزدرونهم ، وفى حمأة تعذيبهم ، لن يجدوا الراحه إلا فى ممارسه أشـــد ألوان الطغيان عسفاً ووحشيه ، معهم

obeikandl.com

بوصفهم أرقاءا وعبيداً لهم ، وسيبقون على هذه الحال إلى الأبد ، مخلدين فى أحط وأسفل مهاوى الهلاك الأبدى وأشـــدها كآبة واحتقاراً واضطهاداً (٤١) .

وعندما رد الأسقف هول على القساوسه الخمسه للشيخيين وهاجمهم بعنف ، انبرى ملتون لنصرتهم فى بيان عاصف لابد أنه أخرج الأسقف وهو فى الخامسه والستين من زدائه الكهنوتى : « نقد لاذع لدفاع المحتج على بيان المشيخيين » ، ظهر ، مجهولا كاتبه ، فى يوليه ١٦٤١ . واعتذر ملتون فى المقدمه عن عنفه فقال :

فى الكشف عن إنسان سيء السمعه عدو للحق ، ولسلام بلاده وإدانته وبخاصه إذا اغتر بأن له لساناً ذرياً منطلقاً مؤثراً ، فإنه لا يتنافى مع اعتدال المسيحيه وتواضعها أن ترد على مثل هذا الرجل بأسلوب أعنف وأشد من أسلوبه ، وأن تشيع غطرسته إلى مثواها مضمخه بمائه المقدس(٤٢) .

وأعاد الأسقف وابنه الكرة ببيان عنوانه « حجه داحضه متواضعه جديدة » (يناير ١٦٤٢) هاجما فيه كاتب « النقد اللاذع » بحدة تميز بها هذا العصر المغيظ المحنق(٤٣) . فرد ملتون كيد الأسقف فى نحره ببيان عنوانه « دفاع ضد الحجه الداحضه المتواضعه » (أبريل) اعتذر فيه مرة أخرى عن سوء معاملته للأسقف هول ، وشجب الفريه العريضه « التى أوردها هول » وهى اتهام ملتون بأنه طرد من كمبردج ، وأكد ملتون للعالم بأسره بأن زملاءه فى « كريست كولدج » دعوه ، بعد تخرجه ، للإقامه معهم ، وأكد من جديد طهارته التى لا مطعن فيها :

على الرغم من أنى لم ألقن إلا قدراً يسيراً من المسيحية ، فإن شيئاً من التحفظ والنزعة الطبيعية والقواعد الخلقية ، استقيته من أنبل فلسفة ، كان كافياً ليجعلنى أحتقر من ألوان الفجور ماهو أقل كثيراً مما يجرى فى المواخير . ولكنى قد عرفت مبدأ الأسفار المقدسة التى تكشف عن الأسرار السامية الطاهرة ... التى تقول بأن « الجسد للرب ، والرب للجسد »

فإنى كذلك سألت نفسى : إذا كان التجرد عن العفة فى المرأة التى ينعتها القديس بولص بأنها فخر الرجل ، فضيحة وخزياً وعاراً ، فالأمر يقيناً كذلك فى الرجل الذى هو صورة الله وفخره معاً ، فإنه لابد أن يكون أشد فساداً وعاراً ، لأنه يقترف الإثم ضد جسده ، وهو الجنس الأكمل ، وضد فخره الذى يكمن فى المرأة ، والأنكى من ذلك ضد صورة الرب وفخره ماثلين فى شخصه هو(٤٤) .

ومن ثم نجد ملتون يرثى لأخلاق كثير من الشعراء القدامى ، ويؤثر عليهم داتى وبتراركه ، اللذين لم يكتبا قط إلا تكريماً وتشريفاً منهما لأولئك الذين نذرا لهم أشعارهما التى عرضا فيها أفكاراً سامية نقية ، دون تأثيم وانتهاك للحرمات . ولم ألبث إلا قليلا حتى تأكد عندى هذا الرأى : إن هذا الذى لا يمكن أن يخيب أمله فى أن يكتب كتابة جيدة ، يجدر أن يكون هو نفسه قصيدة صادقة ، أى مركباً مكوناً من أفضل الأشياء وأشرفها ، لا يقدم على أن يكون قصيده عقود مدح وثناء للرجال البطوليين أو المدائن المشهورة ، إلا إذا أوتى من التجربة والخبرة والمران على كل ماهو أهل للثناء والاطراء(٤٥) .

وبعد هذا المثال الذى اقتبسناه ، انتقل ملتون إلى الحديث عن قدمى الأسقف وجوربه الذى يبعث « برائحه منتنه إلى السماء » . وإذا بدت هذه اللغه غير لائقه باللاهوت فإنه دافع عنها « بقواعد أعظم البلغاء » وبأنه يحذو حذو لوثر ، وذكر قراءه بأن « المسيح نفسه وهو يتحدث عن التقاليد البغيضة لايتردد فى استعمال ألفاظ مثل الغائط والمرحاض »(٤٦) .

والآن نكتفى بهذا القدر من النزاع الكريه الكئيب ، الذى سقناه لأنه يلقى ضوءاً على شخصية ملتون وعلى آداب السلوك فى ذاك العصر ، ولأنه وسط هذا الهراء القاسى وفوضى الأجرومية والجمل الطويلة ، كانت هناك قطع نثرية ذات جرس موسيقى ، ومشرقة تهز المشاعر مثل شعر ملتون

وفى نفس الوقت (مارس ١٦٤٢) ، كان قد نشر باسمه كتيباً أكثر موضوعية : « اثارة تفكير حكومة الكنيسة فى حظر السلطة الأسقفية » : « هذا النير البغيض الذى لا يمكن أن يزدهر أى عقل حر أو موهبه ممتازة تحت وطأة مايفرضه من غباء وعداء تعسفى وطغيان »(٤٧) . وسلم بالحاجة إلى نظام أخلاقى واجتماعى . والحق أن ملتون أدرك أن فى نهوض النظام وسقوطه مفتاح ارتقاء الدول وانهيارها :

ليس فى هذا العالم شىء أعظم أهمية وأشد إلحاحاً وخطراً فى كل حياة الإنسان بأسرها من النظام . وهل أنا فى حاجة إلى ضرب مثل على ما أقول ؟ إن كل من قرأ فى تبصر وتدبر عن الأمم والدول ... لابد أن يقر على الفور بأن ازدهار المجتمعات المتحضرة واضمحلالها ، وكل تحركات الأحداث البشرية وتحولاتها ، إنما تروح وتجىء وكأنها على محور عجلة النظام . وأنه ليس ثمة كمال اجتماعى فى هذه الحياة ، مدنى أو دينى ، يمكن أن يسمو فوق النظام وقواعد الانضباط . لأن النظام هو الذى ، بفضل أوتاره الموسيقية يحافظ على كل أجزاء الحياة ويمسك بها متضامة بعضها إلى بعض(٤٨) .

ومثل هذا النظام ، على أية حال يجب ألا يستقى من أية هيئة كهنوتية متسلسلة فى رتب كنسية ، بل من ادراك أن كل إنسان بذاته يمكن ان يكون كاهنا .

وفى كل المراحل كان ملتون يعى ويدرك كل قدراته ومواهبه . أنه قدم للجزء الثانى من رسالته بقطعة عن سيرة حياته ، أبدى فيها حزنه لأن النزاع قد باعد بينه وبين إخراج عمل عظيم شغل باله طويلا : إن هذا الذى أداه أعظم العباقرة وصفوتهم فى أثينا وروما أو ايطاليا الحديثة ، والعبرانيون القدامى : لبلادهم ، يمكن أن أقوم به أنا لبلدى ، بدورى ، وبقدر حظى من الحياة والعمل ، هذا بالإضافة إلى أنى فوق كل شىء مسيحى(٤٩) .

« وروى ملتون كيف أنه كان بالفعل يعد الموضوعات التى يضمنها مثل هذا

الكتاب . ولكنه أراده عملا يستطيع من خلاله « أن يصور تصويرا نابضا بالحياة وبصف . . . سجل الطهر والفضيلة بأسره » ، و « كل ماهو سام ومقدس فى العقيدة الدينية(٥٠) » ، « وكأنما كان يتنبأ بأن الأعوام الستة عشر قد تنقض قبل أن تدع له الثورة الكبرى فرصة للشروع فى الكتابة : فقال يعتذر عن تأخره :

لست أخجل من الاتفاق مع قارىء فطن ذى دراية ، على أنه فى بضع سنين يتعهد بدفع ديونى الحالية ، لأنه عمل ليس نتاجا لنزوة الشباب أو لعب الخمر بالعقل ، مثل هذا الذى يسيل به « قلم عاشق شرس » بذىء فى أوقات الضياع ، أو شاعر متطفل فى فورة حقده . كما أنه عمل لايمكن إنجازه بالتضرع وقراءة التعاويذ للذاكرة وبناتها المغويات (بنات الأفكار) ، بل بالدعوات والصلوات المخلصة الخاشعة « للروح الأبدى الخالد الذى يستطيع اثراءنا بالتعبير والمعرفة ، ويبعث إلينا بأحد ملائكتة (وحارس عرشه) ساروفيم ، مع نار مذبحة المقدسة ، ليمس ويطهر شفتى من يشاء . ويجدر أن يضاف إلى هذا ، دأب على القراءة الجادة المنتقاة ، ومثابرة على الملاحظة الدقيقة ، وتبصير بالفنون والمسائل العامة الجذابة والواسعة ، حتى إذا تم العمل ، إلى حد ما تحت مسؤليتى وبجهدى الخاص ، فإنى عندئذ لا أرفض أن أزكى هذا الأمل المنشود عند كثير ممن لا ينفرون من المغامرة بالوثوق إلى هذا الحد بما أقطع على نفسى لهم من تعهدات أو وعود(٥١) .

٤ — زواج وطلاق ١٦٣٤ - ١٦٤٨

فى « الحجة الداحضة المتواضعة » كان الأسقف هول قد اتهم ملتون بأنه يسعى لشهرة أدبية ، ويعلن عن مواهبه وقدراته وتجاربه وثقافته وبيئته السابقة ، أملا فى الفوز « بأرملة ذات ثراء » أو أية جائزة أخرى . وفى « الرد » عليه عمد ملتون إلى تسفيه هذه الفكرة والتنديد بها ، وقال أنه على النقيض من ذلك ، « نشأ فى بحبوحة من العيش » واتفق فى الرأى مع « أولئك الذين يؤثرون فى حكمة وتبصر وروح طيبة ، عذراء غير ذات

ثراء عريض ، وذات أصل كريم ، على أغنى الأرامل »(٥٢) . وبينما انساقت انجلترا إلى الحرب الأهلية (١٦٤٢) ، انطلق ملتون إلى الزواج (١٦٤٣) .

لم ينضم ملتون إلى جيش البرلمان ، وعندما اقتربت القوات الملكية من لندن (١٢ نوفمبر ١٦٤٢) نظم قصيدة (سونيت) يشير فيها على قادتها أن يحموا بيت الشاعر وشخصه ، كما فعل الاسكندر الأكبر مع الشاعر بندار من قبل ، واعدا إياهم بأن ينشر على الملأ شعرا « حسن صنيعهم (٥٣) » . على أن القوات الملكية ردت على أعقابها . ولم يمس بيت ملتون بأذى ، وبقى ليستقبل زوجته .

وكان ملتون قد التقى بمارى باول Powell فى فورست هل فى اكسفورد شير ، حيث كان والدها قاضى الصلح . وهذا الوالد ، ريتشارد باول كان قد اعترف من قبل ، فى ١٦٢٧ ، بأنه مدين لملتون ، وكان آنذاك فى كمبردج ، بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، خفف فيما بعد إلى ٣١٢ ، ولكن لم يسدد بعد . والظاهر أن الشاعر قضى عند أسرة باول شهراً (مايو ـ يونية ١٦٤٣) ولسنا ندرى ليسترد الدين أو يحظى بزوجة . وربما أحس جون وهو فى الرابعة والثلاثين ، بأنه قد آن الأوان للزواج والنسل ، وواضح أن مارى كانت تتحلى بالمذرية التى ينشدها . وفاجأ أبناء أخته بعودته إلى لندن متأبط ذراع زوجة .

ولم تدم السعادة طويلا لأحد . . فقد كره أبناء الأخت مارى كدخيلة عليهم ، وكرهت هى كتب ملتون ، وافتقدت أمها و « القدر الكبير من الصحبة والأنس والبهجة والرقص . . » الذى كانت تنعم به فى فورست هل . ويقول أوبرى « كثيراً ما كانت تسمع أبناء الأخت هؤلاء يضربون فيتعالى صراخهم(٥٤) مذ رأى ملتون أن مارى محدودة التفكير ضيقة الأفق ليس فيها سوى النزر اليسير من الأفكار ، التى هى فى جملتها ملكية » فإنه انصرف ثانية إلى كتبه . وتحدث فيما بعد عن « شريكة حياة بكماء

جامدة كئيبة لا روح فيها » ، ورثى « للإنسان الذى يجد نفسه مرتبطا بأوثق رباط بهيكل من طين وبلغم ، كان يأمل منه أن يكون شريك مجتمع تملؤه السعادة والبهجة والسرور(٥٥) » ويعتقد بعض الباحثين فى الزواج غير المتكافىء أن مارى أبت عليه البناء بها(٥٦) . وبعد شهر طلبت السماح لها بزيارة والديها ، فوافق ملتون ، مع التفاهم بينهما على عودتها . ولكنها ذهبت ولم ترجع . وبعث إليها برسائل تجاهلتها ، ولما لم يجد أى متنفس آخر لمشاعره ، كتب ونشر دون توقيع « مبدأ الطلاق ونظامه » (أغسطس ١٦٤٣) ، وأهداه إلى « برلمان انجلترا والجمعية » أى جمعية وستمنستر التى كانت تصوغ آنذاك اعترافا بالمذهب المشيخى . وتقدم إلى البرلمان برجاء أن يتحلل من أغلال التقاليد ، ويسير بالإصلاح قدما ، باقرار أسس أو شروط أخرى للطلاق ، غير الزنى ، وعرض أن يوضح : —

أن التصور ، وعدم الأهلية أو تنافر العقول الناشىء عن سبب طبيعى لا يتسنى تغييره ، مما عوق ، والأرجح أنه كثيراً ما يعوق إلى الأبد ، مزايا الحياة الزوجية ، وهى السلوى والبهجة والهدوء والطمأنينة ، تقول أن هذا سبب للطلاق أقوى من البرودة الزوجية الطبيعية ، لا سيما إذا لم يكن هناك أطفال ، وكانت هناك موافقة من الطرفين (٥٧) .

واقتبس ملتون القانون اليهودى القديم الذى ورد فى التوراة (سفر التثنية ٢٤ ـ ١) « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شىء . وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته » . وواضح أن السيد المسيح رفض هذا الجزء من شريعة موسى . فقد جاء فى انجيل متى (٥ ـ ٣١ ، ٣٢) « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى » ، واحتج ملتون بأنه « المسيح لم يقصد أن يؤخذ كلامه بمعناه الحرفى ، كلمة بكلمة »(٥٨) ، وكثيراً ما أعلن أنه لم يأت ليغير مقدار ذرة من شريعة موسى . وكافح ملتون حتى يجعل تفسيره الواسع يشمل

قضيته الشخصية ، حتى أنه ذهب إلى حد تبرير الطلاق لعدم القدرة على الإسهام « فى حديث مناسب معقول . « لأن عدم الصلاحية والتخلف فى العقلية التى تنفر من الزواج » يمكن أن تهبط بالزواج إلى « حالة أسوأ من حياة الوحدة الموحشة » حيث تكون النفس النابضة بالحياة مربوطة إلى مجرد جثة (٥٩) .

ونقد الكتاب الصغير بسرعة ، لأنه قوبل باستنكار عام . وفى فبراير ١٦٤٤ نشر ملتون طبعة مزيدة منقحة ظهر عليها اسمه فى جرأة وشجاعة . وردعلى ناقديه فى أسلوب العالم المتفقه ، فى « Tetrochordon » ثم فى أسلوب أخف فى Colasterion (صدر كلاهما فى ٤ مارس ١٦٤٥) ، تناولهم فيهما بأقسى القدح والألفاظ المقذعة — كتلة من الطين ، خنزير ، خنزير برى ، ذو أنف بشع ، محام له مخ الديك ، حمار صفيق ، بغيض ، كريه الرائحة (٦٠) لقد استطاع ملتون فى الصحيفة الواحدة أن يقفز من مرتفعات بارناسوس إلى أحط مهاوى السفاهة والبذاءة .

وحيث أخفق فى أن يحصل من البرلمان على تعديل فى قانون الطلاق ، اعتزم أن يتحدى القانون ، ويتخذ زوجة ثانية ، وكان يفضل مس دافيز التى لا نعرف عنها شيئاً إلا أنها رفضته . ولما ترامت شائعات هذه الخطبة إلى مسامع مارى باول قررت أن تستعيد زوجها ، على أى الأحوال ، حلوها أو مرها ، قبل فوات الأوان . وذات يوم بينما كان ملتون فى زيارة لصديق فاجأته مارى وجثت بين يديه وتوسلت إليه أن يعيدها إلى مخدعه وبيته . وتردد هو ، ولكن أصدقاءه ناصروا قضيتها ، فقبل عودتها إليه . وانتقل الآن إلى بيت أوسع فى باربيكان ستريت ، ضمها كما ضم أباه وتلاميذه . وسرعان ما جاء أبواها للاقامة أيضاً مع الشاعر ، بعد أن تدهورت حالهما بهزيمة الملكية ، مما جعل هذا البيت أقرب ما يكون إلى دار للحاجين ، أو للفلسفة . وزاد الامر ضغثاعلى أبالة فى ١٦٤٦ ، مولد طفلة ملتون الأولى آن . وخفف من هذه الفوضى موت ريتشارد باول فى يولية ، كما أن جون

ملتون الاكبر (الوالد) اختتم حياته المديدة الكريمة فى مارس التالى . ومن ثم أصبح الشاعر وريثا لمنزلين أو ثلاثة فى لندن ، ولبعض المال ، وربما لبعض العقارات فى الريف . وفى ١٦٤٧ فض ملتون مدرسته وانتقل مع زوجته وابنته واثنين من أبناء أخته إلى « هاى هلبورن ستريت » وفى ١٦٤٨ ولدت له ابنته الثانية مارى .

٥ — حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩

فى ١٣ أغسطس ١٦٤٤ ، تحدث الكاهن المشيخى هربرت بالمر أمام مجلس البرلمان ، واقترح أن تحرق علنا رسالة ملتون عن الطلاق . ولم تحرق الرسالة ، ولكن شكوى بالمر ربما أدت « بشركة المكتبات » التى تضم كل باعة الكتب الإنجليز ، إلى لفت نظر مجلس العموم (٢٤ أغسطس) إلى أن الكتب والنشرات تخالف القانون الذى يتطلب تسجيلها واجازتها بمعرفة الشركة . وكان هذا القانون قد صدر فى عهد البرلمان ، كما أن البرلمان كان قد جدد العمل به فى ١٤ يونيه ١٦٤٣ ، بإصداره أمرا ينص على :

أنه لايطبع كتاب أو نشرة أو ورقة ، أو أى جزء من شىء من هذا القبيل ، أو يعرض للبيع ، قبل التصديق على نسخة منه واجازته ، من أشخاص يعينهم لهذا الغرض أحد المجلسين أو كلاهما معا ، وقبل أن يسجل فى السجل المعد لذلك فى شركة المكتبات ، طبقا لما جرى عليه العرف من زمن بعيد(٦١) .

ويعاقب أى خرق لهذا القانون بالقبض على من تولوا التأليف والطبع .

وكان ملتون يهمل دوما تسجيل ما ينشره نثرا . وعلى الرغم من أن كتابه « مبدأ الطلاق ونظامه » ظهر بعد صدور الأمر سالف الذكر بشهرين ، فإنه تجاهل ما يقضى به . وربما كان شاعرنا ذا حظوة لدى البرلمان لأنه ناصره فى صراعه مع الملك . على أن البرلمان على أية حال ، تغاضى عنه وحده ولكن الأمر ظل سيفا مصلتا على رأسه وعلى رؤوس سائر المؤلفين فى بريطانيا . وبدا لملتون ضربا من المحال أن يزدهر الأدب فى ظل

مثل هذه الرقابة . فماذا يجدى خلع ملك وتحطيم نظام أستفى استبدادى قاس ، إذا استمر البرلمان والكنيسة على التدقيق والتحقيق فى كل كلمة يتفوه بها الإنجليز ؟ . وفى ٢٤ نوفمبر ١٦٤٣ أخرج درن تسجيل أو إجازة أروع أعماله النثرية « أريوباجيتيكا : حديث من جون ملتون عن حرية المطبوعات دون أجازة ، إلى برلمان انجلترا »(*) وليس فى هذا الحديث قذف ولا طعن ولا نقد لاذع ، بل كان على مستوى عال من اللغة والفكر وفيه يطلب إلى البرلمان بكل اجلال واحترام ، أن يعيد النظر فى قانون الرقابة ، من حيث أنه ينزع إلى « تثبيط الهمم فى سبيل العلم والمعرفة ، ويعوق كل يقضى على أى ابداع واكتشاف يمكن أن يخرج فى المستقبل إلى حيز الوجود فى مجال الحكمة الدينية والمدنية كليهما . » ثم يستطرد فى قطعة مشهورة قيمة :

لست أنكر أنه من أعظم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ، ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به العدالة على عوامل الشر لأن الكتب ليست أشياء ميتة اطلاقا ، بل أن فيها من الفعالية والحيوية مايجعلها نشيطة فى مثل نشاط النفس التى أنتجتها . ليس هذا فحسب ، بل أنها كذلك ، تحفظ ، وكأنما تحفظ فى قنينة ، أنقى عصارة وقوة مؤثرة للفكر الحى الذى نماها وأبدعها . وإنى لأدرك أنها نشيطة قوية الإنتاج مثل أسنان التنين الخرافية إذا نثرت على الأرض هنا وهناك انبعث منها رجال مسلحون (هكذا تقول الخرافة) . ومن جهة أخرى ، فإنه إذا لم يكن ثمة حيطه وحذر ، فان قتل الإنسان يعدل تقريبا قتل الكتاب الجيد . إن من يقتل رجلا يقتل مخلوقا عاقلا ، صورة الله ، على حين أن من يدمر الكتاب الجيد ، يقتل العقل نفسه ، بل يقتل صورة الله ، فى صميمها . وكم من إنسان

(*) Areopagitica — يقصد بها المسائل المتعلقة بالحكمة العليا فى أثينا ، واسمها أريوباجوس ، نسبة إلى الجبل الذى كانت تجتمع عليه . واقتبس ملتون هذا العنوان من رسالة وجهها آيزوقراط ٣٥٥ ق . م . إلى هذه الحكمة .

يعيش حملا ثقيلا على الأرض ، ولكن الكتاب الجيد هو دم الحياة الغالى للروح السامية يصان ويختزن ، قصدا لحياة وراء الحياة . حقا أن أى عصر لن يستطيع استعادة الحياة ، وقد لايكون فى هذا خسارة ، ولا تعوض ثورات العصور فى الغالب عن فقدان حقيقة منبوذة ، ساءت حال امم بأكملها من أجل افتقارها إليها .

وينبغى لذلك أن نكون حذرين يقظين لأى اضطهاد نصبه على الأعمال الحية لمشاهير الرجال البارزين ، وكيف نبدد حياة الرجل الناضجة المحفوظة المختزنة فى كتاب . فإذا رأينا عملا من أعمال القتل يرتكب على هذه الصورة ، وهو فى بعض الأحيان استشهاد ، وإذا امتد هذا إلى كل الإنتاج ، حتى ينتهى الأمر إلى مذبحة ، فمن ثم لاينتهى الإعدام عند خنق الحياة الفطرية ، بل ينفذ إلى الجوهر السماوى الخامس البالغ الرقة ، أى روح العقل ذاته ، فيقضى على الخلود أكثر مايقضى على مجرد حياة(٦٢) .

ويستشهد ملتون بالنشاط الفكرى فى أثينا القديمة ، حيث لم تفرض الرقابة إلا على الكتابات التى تتضمن إلحادا أو قذفا ، وهكذا حكم قضاة محكمة أريوباجوس العليا بإحراق كتب بروتاجوراس ، وبنفيه خارج البلاد ، لمقالة بدأها بالاعتراف بأنه لايدرى « إذا كان هناك آلهة أم لا » . ويمتدح ملتون حكومة رومة القديمة لإتاحتها قدرا كبيرا من الحرية للكتاب ، ثم يصف نمو الرقابة فى رومة الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية . ويحس ملتون بأن قانون الرقابة هذا تشتم منه رائحة « البابوية » « وما فائدة أن تكون رجلا : لامجرد تلميذ فى مدرسة ، إذا كنا فقط هربنا عن الدرة أو العصا « لنقع تحت نير الرخصة (للطباعة)(٦٣) » ؟ أن الحكومات ومراقبيها ليسوا معصومين من الخطأ ، فليس لهم أن يفرضوا ما يروق لهم أو ما يفضلونه من آراء ومبادىء على الناس ، والأولى بهم أن يتركوا الناس ليختاروا ويتعلموا ، حتى ولو كلفتهم التجربة والخطأ أبهظ الثمن :

إنى لا أستطيع أن أمتدح فضيلة مفروضة عليها الحماية والرقابة ، لا يمارسها أحد ولا ينشق عبيرها أحد ، لاتنطلق قط لترى خصومها ، بل تتسلل بمعزل عن الناس(٦٤) . أعطنى الحرية لأعرف وأتحدث وأناقش ، بلا قيد ، وفقا لما يمليه الضمير ، فوق كل الحريات(٦٥) . . ومع أن كل رياح المذاهب والمبادىء أطلقت لتهب على الأرض ، حتى إذا دخلت الحقيقة إلى الميدان ، أسأنا إليها بالرقابة والحظر ، لنشكك فى قوتها ، فلنتركها مع البهتان يتصارعان ، فمن ذا الذى رأى يوما أن الحقيقة تنهزم فى معركة حرة مفتوحة(٦٦) ؟ .

ومهما يكن من أمر فان ملتون لايطالب بالحرية المطلقة للمطبوعات ، فهو يؤمن بأن الإلحاد والتشهير والفحش يجب أن يحرمها القانون ، ويرفض التسامح مع الكاثوليكية لأنها عدو للدولة ، ولأنها هى نفسها موصومة بالتعصب(٦٧) . وفيما عدا ذلك ، فان الدولة التى تسود فيها حريه الفكر والكلام لابد أن ترقى وتنمو فيها سائر الأشياء سواء بسواء .

يخيل إلى أنى أرى بعين البصيرة أمة كريمة قويه تستيقظ وتنفض النوم عن جفونها ، مثل رجل قوى يفيق من سباته ، وتهز خصلات شعرها . ويبدو لى أنى أراها مثل نسر ، يجدد شبابه ويفتح عينيه الحادتين(٦٨) فى وقدة الظهيرة .

ولم يلتفت البرلمان لدفع ملتون أو حجته ، بل على النقيض من ذلك ، سن قوانين تصاعدت صرامتها (١٦٤٧ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٣) ضد اصدار مطبوعات غير مرخصة . وشكا أعضاء شركة المكتبات من أن ملتون لم يكن قد سجل « الأريوباجيتيكا » . وعين مجلس اللوردات اثنين من رجال القضاء لمساءلته ، ولسنا نعرف النتيجة . ولكن من الواضح أنهم لم يزعجوه ، لأنه كان صوتا ذا نفع وقيمة للبيوريتانيين المنتصرين .

وفى فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد اعدام شارل الأول بأسبوعين اثنين ، نشر ملتون رسالة عن « ولاية الملوك والحكام » ، ارتقى فيها نظرية العقد

الاجتماعى التى تقول بأن سلطة الحكومة مستمدة من سيادة الشعب ، وانه من حق من يملكون السيادة أن يحاسبوا أى طاغية أو ملك شرير ، وعزله وإعدامه ، بعد إدانته إدانة عادلة(٦٩) » . وبعد شهر واحد دعاه مجلس الدولة فى الحكومة الثورية ليكون « سكرتير المجلس للغات الأجنبية » . فنحى ملحمته جانبا ، ليتفرغ لمدة أحد عشر عاما ، لخدمة جمهورية البيوريتانيين وحكومة « الحماية » على عهد كرومول .

٦ ـ سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩

كان النظام الجديد فى حاجة إلى من يتقن اللغة اللاتينية ، ليحرر للراسلات الأجنبية ، وكان ملتون للرشح البارز لهذا العمل . حيث كان يستطيع الكتابة باللغات اللاتينية والايطالية والفرنسية كأحد أبناء رومة القديمة أو فلورنسة أو باريس ، كما أنه كان قد أثبت فى أشد أوقات الحرج أنه مخلص لقضية البرلمان فى نزاعه ضد الأساقفة والملك . وكان مجلس الدولة « كرومول » هو الذى استخدمه لهذا العمل . ولم يكن له صلة وثيقة بالحاكم الجديد ، ولكنه لابد أن يكون قد رآه كثيراً ، وأنه قد أحس فى تفكيره وفى كتاباته ، بالتقارب مع هذه الشخصية المرعبة . ولم يستخدم المجلس ملتون لمجرد ترجمة رسائله الأجنبية إلى اللاتينية ، بل كذلك ، ليبرز للحكومات الأجنبية ، فى نشرات لاتينية ، وجه العدالة والحق فى السياسة الداخلية التى ينتهجها المجلس ، كما يبرز ، فوق ذلك كيف كان من الحكمة وسداد الرأى الاطاحة برأس الملك .

وفى أبريل ١٦٤٩ ، فور تقلده منصبه ، انضم ملتون إلى موظفين آخرين فى المجلس فى وقف نشرات الملكيين وأنصار المساواة ضد نظام الحكم الجديد(٧٠). وكانت الرقابة على المطبوعات آنذاك أشد صرامة منها فى أى وقت مضى فى تاريخ انجلترا ، متبعة فى ذلك القاعدة العامة التى تقول بأن الرقابة تشتد بتزعزع مركز الحكومة . إن الرجل الذى كان قد دبج بأفصح بيان النداء الذى لم يكن له نظير من قبل ، من أجل حرية الصحافة

بات الآن ينظر إلى الرقابة من وجهة نظر السلطة الحاكمة ، على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن ملتون قال من قبل الأريوباجيتيكا : إنه من أهم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ماتقضى به العدالة على عوامل الشر »(٧١) .

ومذ كان جون للبيرن بصفة خاصة كاتباً مزعجاً من أنصار المساواة ، فإن المجلس أصدر تعليماته إلى ملتون ليتولى الرد على كتابه المتطرف « اكتشاف أغلال جديدة » . ولسنا ندرى هل قام ملتون بهذه المهمة أو لم يقم . ولكنه يروى هو نفسه(٧٢) أنه « أمر » أن يرد على « صورة ملك » وامتثل لهذا الأمر فنشر فى ٦ أكتوبر ١٦٤٩ كتاباً من ٢٤٢ صفحه تحت عنوان « محطم الصورة » . وارتياباً ، ولكن اعتراضاً منه بأن « صورة الملك » هو ما أوهم بأنه من تأليف شارل الأول نفسه ، فإنه — أى ملتون تناول حجة الملكية فقرة فقرة ، وانبرى لتفنيدها بكل ما أوتى من قوة ومن خلال ذلك دافع عن سياسة كرومول ، وبرر إعدام الملك ، وأبدى احتقاره « لتلك الشرذمة من الغوغاء المتقلبين الذين يعوزهم التفكير السليم المولعين بالصور ، . . قطيع ساذج عاجز تربى على الذل والخنوع . . . . يفتتن بالطغيان(٧٣) » .

واستبد الغيظ والحنق بشارل الثانى ، وهو يتجول فى القارة ، فاستأجر أعظم علماء أوربا كلود سوميز ليتولى الدفاع عن الملك الميت ، وسرعان ماأصدر « سالماسيوس » « دفاعه عن الملك السابق شارل الأول » ، فى ليدن (نوفمبر ١٦٤٩) ، نعت فيه كرومول وأتباعه بأنهم « أوغاد متعصبون . . . وأنهم العدو المشترك للبشرية » وأهاب بكل الملوك ، من أجلهم هم أنفسهم :

أن يجهزوا الجيوش للقضاء على هذا الوباء . . . يقينا أن دم الملك العظيم يستصرخ كل الملوك والأمراء فى العالم المسيحى للثأر له . ولا يمكن أن يقوموا بعمل فيه هدوء روحه وسكونها خيرا من أن يعيدوا لوريثه

الشرعى كل حقوقه كاملة ، ويستردوا له عرش أبيه ٠٠٠٠ وأن يذبحوا ، كضحايا على جدث الميت المقدس ، هذه الوحوش البالغة الضراوة ، الذين تآمروا على قتل مثل هذا الملك العظيم(٧٤) .

وخشى كرومول أن — تزيد حملات مثل هذا العالم الذائع الصيت فى أوربا من الاستياء السائد فى القـــارة ضد حـكومته ، فطلب إلى ملتون الرد على سالماسيوس . وجهد السكرتير اللاتينى فى انجاز هذه المهمة قرابة عام كامل ، فى ضوء الشموع ، على الرغم من تحذير طبيبه له بأنه يفقد بصره تدريجا ، وأنه مهدد بالعمى . وكانت احدى العينين عاطلة بالفعل ، وفى ٣١ ديسمبر ظهر « دفاع الشعب الإنجليزى عن نفسه ضد دفاع سالماسيوس عن للملكية — لجون ملتون » ، بدأ بالسخرية من سالماسيوس لبيعه خدماته لشارل الثانى ، واستطرد ليظهر أن سالماسيوس قبل أربع سنوات فقط كتب يهاجم النظام الأسقفى الذى يدافع عنه الآن :

أيها العميل الفاسد المرتشى المـــأجور ٠٠٠ أيها الجبان المحتقر المرتد الخارج على مبادئك ٠٠٠ يا أشد الحمقى سذاجة وبلاهة ٠٠٠٠ أنت جدير بمكازة المهرج ، حين تظن أنك تغرى الملوك والأمراء بالحرب ، بمثل هذه الحجج الصبيانية الواهية ٠٠٠ هل تتخيل إذن ، أيها المتلعثم المحامى الصغير الحقير ، الذى لم يولد إلا لينسخ ويقلد كبار الكتاب ، الذى لم يؤت أية موهبة أو ذكاء أو عبقرية ، أنك ستنتج شيئا تكتب له الحياة من عندياتك ؟ صدقنى أنك وكتاباتك العقيمة معا ، ستلقى فى زوايا النسيان فى الجيل القادم . لولا أن « دفاعك عن الملك » سيدين ببعض الفضل للرد عليه ، بمحض الصدفة ، وعلى الرغم من أنه قد أغفل وطرح جانبا لبعض الوقت ، فإنه لذلك سيبعث من جديد(٧٥) .

وهذا هو ماحدث على وجه الدقة . أن سالماسيوس كان قد أضفى على شارل الأول صورة مثالية . ولكن ملتون يحط من قدره . ويشتبه فى أن شارل عرض دوق بكنجهام على دس السم لوالده جيمس الأول ، ويتهم

الملك الميت بكل « ضروب الفساد الخلقى والإثم » مع الدوق المذكور ، ويتهم شارل بتقبيل الزوجة فى المسرح ، وبمداعبته أثناء العذارى والعقيلات علنا(٧٦) . » وكان سالماسيوس قد أطلق على ملتون أسماء كثيرة ، فثأر ملتون بأن نعت سالماسيوس بأنه ، غبى ، خنفساء ، حمار ، كذاب ، قذاف مفتر ، مرتد ، معتوه ، جهول ، متشرد ، عبد ذليل ، ويسخر من سالماسيوس لسيطرة زوجته عليه ، ويعنفه على أخطائه اللاتينية . ويدعوه إلى أن يشنق نفسه ، ويضمن له الدخول إلى الجحيم(٧٧) . ونظر توماس هويز إلى هذه الكتب المتنافسة من علياء فلسفته ، فأعلن أنه عاجز عن أن يقرر أى الفريقين أقوى لغة وأيهما أضعف حجة(٧٨) . على أن مجلس الدولة قدم الشكر لملتون .

تلقى سالماسيوس نسخة من « دفاع » ملتون أثناء وجـــوده فى بلاط الملكة كريستينا فى ستكهلم ، ووعد بالرد عليه ، ولكنه أبطأ . وفى الوقت نفسه انصرف ملتون عن الشئون الخارجية إلى شئون بيته . فنى ١٦٤٩ انتقل إلى دار فى « شيرنج كروس » ليكون قريبا من عمله . وهناك وضعت زوجته ولدا ، لم يلبث أن مات ، وفى ١٦٥٢ وضعت بنتا ، « ديبورا » كلفته ولادتها حياة أمها . وفى تلك السنة فقد ملتون بصره تماما . وعندئذ نظم قصيدة من أروع قصائده (السونيت) « عندما أتدبر كيف فقدت نور عينى » . وأبقى عليه المجلس سكرتيرا لاتينيا ، وخصص له كاتبا ليدون له ما يمليه عليه .

ومنى ، وهو رهين العمى ، بخسارة أخرى ، فنى ١٦٥٣ انهارت الجمهورية التى طالما هلل لها ورحب بها ، إلى « ملكية عسكرية » وأصبح فيها « حامى الحمى » كرومول ، فى واقع الأمر ملكا . وراض ملتون نفسه على هذه التطورات بقوله : « أن أساليب العناية الإلهيـــة يحوطها الغموض والإبهام(٧٩) . وظل على اعجابه بكرمول وامتدحه بأنه « أعظم بنى الوطن وأكثرهم تألقا وامتيازا ... أنه أبو البلاد » ، وأكد له « أن فى ائتلاف

المجتمع الإنسانى ليس ثمة شىء أحب إلى الله ، أو أكثر إلتئاما مع العقل من أن يتولى أسمى العقول السلطة العليا(٢٨) » .

وسرعان ماطلب إليه أن يتولى الدفاع عن « حامى الحمى » فى اتهام خطير . ذلك أنه فى ١٦٥٢ ظهر كتاب يشكل عنوانه نفسه صيحة الحرب « صرخة الدم الملكى إلى السموات ضد الإنجليز الذين قتلوا أباهم » وبدأ الكتاب بأن نعت ملتون بأنه « حيوان شرير بشع ، قبيح المنظر ، ضخم الجسم ، مكفوف البصر .... جلاد ... يستحق الشنق » . وقرن الكتاب اعدام شارل الأول بصلب المسيح ، واعتبر قتل الملك كبرى الجوائم(٨١) وسخر من جهر « الغاصبين » بإيمانهم بالدين :

أن لغة وثائقهم العامة محشوة بالتقى والورع وكان لزاما أن يجاريها أسلوب كرومول ومن يدافعون عنه ، وأنه لمما يثير الاشمئزاز ، كما يثير السخرية للريرة ، إلى أى حد من الوقاحة والصفاقة يخفى هؤلاء الأوغاد الخفيون واللصوص الظاهرون حقيقة شرورهم بذريعة أوستار من الدين (٨٢) .

وكما فعل سالماسيوس ، آهاب للمؤلف المجهول بدول القارة أن تغزو انجلترا وتعيد آل ستيوارث إلى العرش . وختم الكتاب بتوجيهه إلى الحارس القذر للتوحش ، جون ملتون ، المدافع عن قتل الآباء وقتلتهم ، مع الأمل فى أن يلقى وشيكا شر الجزاء فيضرب بالسياط :

حول هذا الرأس الخائن سدد الضربات جيدا ، وشوه كل بوصة فيه بآثار العصا ، إلى أن تصبح الجثة كتلة هلامية واحدة . هل توقفت ؟ اضرب حتى تتفجر الصفراء من كبده من خلال عينيه الداميتين(٨٣) .

واستحث مجلس الدولة ملتون للرد على هذا العنف ، ولكنه تمهل توقعا لحملة من سالماسيوس ، أملا فى أن يرد على الخصمين فى رسالة واحدة . ولكن سالماسيوس قضى نحبه (١٦٥٣) دون أن يتم رده . وخدع ملتون فى اعتقاده بأن كاتب « صرخة الدم الملكى » هو الكسانذر مورس —

Morus ، وهوقسيس عالم فى مدلبرج فطلب إلى مراسليه فى المقاطعات المتحدة موافاته ببيانات عن حياة مورس العامة والخاصة(٨٤) . وكتب أوريان أولاك ، طابع الكتاب ، إلى هارتاب ، صديق ملتون ، مؤكدا أن مورس ليس هو المؤلف(٨٥) . ولكن ملتون أبى أن يصدق هذا ، وأيده فى هذا ، ما يتناقله الناس فى امستردام . وفى أبريل ١٦٥٤ كتب جون دروري إلى ملتون ، محذرا اياه بأنه مخطىء فى نسبة « صرخة الدم الملكى » إلى مورس ، ولكن ملتون تجاهل هذا التحذير ، وفى ٣٠ مايو كتب الدفاع الثانى للشعب الإنجليزى » — جون ملتون .

وكان سحر البيان فى هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ١٧٣ ، أمرا مشهودا ، حيث أملاه باللاتينية رجل كف بصره تماما . وعزا أعداؤه ما أصابه من عمى إلى العقاب الإلهى جزاء خطاياه الفادحة . وأجاب ملتون على هذا بأنه لا يمكن أن يكون ، لأن حياته كانت مثالية ، وهو يشعر بالفرح والابتهاج لأن الدفاع الأول :

هكذا أصاب غريمى بهزيمة ساحقة .... إلى حد أنه استسلم من فوره وقد تحطمت روحه وانهارت همته ، وعلى مدى السنوات الثلاث التالية من حياته ، ولو أنه كان يهدد ويرغى ويزيد كثيراً . فإنه لم يعد يزعجنا ، فيما عدا أنه استعان بالجهد التافه لشخص جدير بكل الازدراء ، حرضه بما لست أدرى من الملق القبيح المسرف ، على أن يرقعا قدر الإمكان يمديحهما ، ماحل بشخصه مؤخراً من دمار غير متوقع(٨٦) .

ثم يعرج ملتون على عدوه الجديد ، فيذكر أن « مورس » تعنى بالأغريقية « مغفل » ، ويتهمه بالمرطقة والتهتك والزنى ، وبأن خادمة سالما سالماسيوس حملت منه سفاحا ، ثم هجرها . بل أن طابع « صرخة الدم للملكى » نفسه يجلد بالسوط ، وكل إنسان يعرف أنه غشاش مفلس سيء السمعة(٨٧) .

وفى ظرف وسرح أكثر ، يستعرض ملتون أعمال كرومول ، ويدافع عن حملاته فى أيرلنده ، وعن حل البرلمان ، وعن استيلائه على السلطة ،

ويوجه الحديث إلى « حامى الحمى » :

إننا جميعاً نقدرك حق قدرك ونقر بفضلك الذى لا يدانيه فضل ، فامض فى طريقك القويم ، يا كرومول ، ... يامحرر بلادك ، ويامن أرسى دعائم الحرية فيها ، ويامن تفوقت بأعمالك الجيدة ، لا على انجازات الملوك فحسب ، بل على مغامرات أبطالنا الأسطورية أيضاً (٨٨) .

ولكن بعد عبارات الإجلال والإكبار هذه ، لم يتردد ملتون فى أن يمحض كرومول النصح فى أمر السياسة . فأشار عليه بأن يحيط نفسه برجال من أمثال فليتوود ولمبرت (وهما من المتطرفين) ، وأن يدعم حرية الصحافة وأن يترك الدين منفصلا تمام الانفصال عن الدولة . كما ينبغى ألا تجمع أية عشور لرجال الدين ، فانهم بالفعل متخمون ، (وكل مافيهم سمين ، حتى عقولهم دون استثناء (٨٩) » . ويسترسل ملتون فيحذر كرومول من أنه « ونحن نعده ، دوننا جميعاً ، أعدل وأقدس وأفضل رجل » إذا أقدم على قمع الحرية التى دافع عنها ، فلن تكون النتيجة إلا وبالا ودماراً ، لا لشخصه فحسب ، بل كذلك لكل متطلبات الفضيلة والتقوى (٩٠) . ويوضح ملتون بأجلى بيان أنه لا يقصد « بالحرية » الديموقراطية ، وهو يسأل الناس :

لماذا يؤكد لكم أى إنسان حقكم فى الاقتراع العام ، أو قدرتكم على انتخاب من تريدون للبرلمان ؟ هل من أجل أن تتمكنوا من انتخاب رجال من حزبكم فى المدن ، وفى الأقاليم ، تنتخبون الرجل الذى مد لكم الموائد فى بذخ بالغ ، أو أسرف فى تقديم الشراب لرجال الريف والفلاحين السذج ، سواء كان جديراً أو غير جدير بالانتخاب ؟ ومن ثم لا يجتمع لنا فى البرلمان أعضاء اتسموا بالحصافة والحكمة والخبرة والثقة ، بل أعضاء صنعتهم الحزبية وموائد الطعام !! . وبعبارة أخرى نحصل على أعضاء من تجار الخمور والباعة المتجولين ، من الحانات فى المدن ، ومن الرعاة ومربى الماشية فى الريف ، فهل يجدر بأى إنسان أن يكل أمور الجمهورية لأمثال هؤلاء الذين لا يثق أحد فى أن يعهد إليهم بشأن من شئونه الخاصة (٩١) ؟ .

obeikandi.com

كلا ، إن مثل هذا الاقتراع العام لا يعتبر حرية :

فلأن أن تكون حراً ، هو بالضبط أن تكون تقياً عاقلا عادلا معتدلا مكتفياً بذاتك ، لا تمد يديك إلى ما بأيدى الناس ، وقصارى القول ، أن تكون شهماً رحب الصدر شجاعا . أما إذا تجردت من هذا كله أو كنت على نقيضه ، فإنك لن تعدو أن تكون عبداً رقيقاً . وقد حكم الله على الأمة التى لا تستطيع أن تحكم نفسها وتدبر أمورها بنفسها ، والتى استعبدتها شهواتها ، بأنها لابد أن تستسلم لسلطان غيرها ، فتقع فى ذل العبودية بإرادتها وضد إرادتها معاً (٩٢) .

وفى أكتوبر ١٦٥٤ أعاد أولاك طبع « الدفاع الثانى » لملتون ، فى ثلاثى ، مع رد عليه بقلم مورس بعنوان « دليل دامغ » . وفى المقدمة أكد الطابع أن مورس ليس مؤلف « صرخة الدم الملكى » ، وأنه ، أى أولاك ، تسلم مخطوطته من سلماسيوس الذى أبى أن يميط اللثام عن إسم المؤلف . وأنكر مورس انكاراً تاماً أنه المؤلف ، وأكد أن ملتون قد أبلغ بهذا مراراً وتكراراً ، واتهمه بأنه قد نقض من قبل تغيير « دفاعه » ، لأنه لن يتبقى منه شىء يذكر إذا حذف منه السباب الذى وجهه إلى مورس . وفى أغسطس ١٦٥٥ أصدر ملتون كتاباً من مائتين وأربع صفحات « دفاع عن النفس » ورفض أن يصدق انكار مورس ، وأورد من جديد فعلته الشائنة مع خادمه سالماسيوس ، وأضاف أنها ، فى شجار مشروع أوسعت مورس ضرباً وطرحته أرضاً ، وكادت أن تفقأ عينيه(٩٣) . ولكن تبين فى خاتمة المطاف أن أحد رجال اللاهوت البروتستانت ، واسمه بيير دى مولان ، هو الذى كتب « صرخة الدم الملكى » ، وأن مورس هو الذى نشره وكتب إهداءه(٩٤) . ولما دعى مورس ليكون راعياً لإحدى كنائس الإصلاح قرب باريس ، أرسل شاعرنا عدة نسخ من « الدفاع الثانى » إلى الأبرشية لمنع تعيينه(٩٥) . ولكن مجلس الأبرشية عينه على الرغم من ذلك كله ، وختم مورس سيرته التى اكتنفتها المضايقات (١٦٧٠) وهو أنصح

الوعاظ البروتستانت بياناً فى باريس أو فيما حولها .

ويبدو ملتون فى مظهر أرق فى قصيدة السونيت « مذبحة بيد مونت » (١٦٥٥) (*) . ويحتمل أنه هو الذى دون الرسائل التى أهاب فيها كرومول بدوق سافوى ليضع حداً لاضطهاد « الفدوا Vaudois » (أتباع بيتر فالدو — بيوريتانيون منشقون فى جنوب فرنسا) ؛ والى مزران وحكام السويد والدنمرك والمقاطعات المتحدة ومقاطعات سويسرا ، ليتوسطوا لدى الدوق .

وفى ١٦٥٦ ، بعد أربع سنوات من حياة العزوبة ، تزوج ملتون من كاترين وودكوك التى لم تكتحل عيناه بمرآها ، بطبيعة الحال ولكنها أثبتت أنها بركة ونعمة عليه ، فكانت ممرضة صابرة متجلدة لزوج مكفوف عنيف ، وأما لبناته الثلاث ، ولكنها قضت نحبها (١٦٥٨) ، أثناء وضع طفل لم يعمر . وكانت تلك سنة عصيبة على ملتون ، حيث رحل عن الوجود وكرومول أيضاً ، فكان لزاماً على السكرتير اللاتينى أن يحافظ على منصبه ، قدر طاقته ، فى غمرة فوضى الأحزاب التى انحدرت بريتشارد كرومول إلى مجرد رجل عاجز تافه محب للخير . وعلى الرغم من أن ملتون لا بد كان يدرك أن انجلترا سائرة فى طريق استعادة ملكية آل ستيوارت ، فإنه أصدر فى أكتوبر ١٦٥٨ طبعة جديدة من « دفاع الشعب الانجليزى عن نفسه » فى أسلوب يغرى بالاستشهاد . وفى مقدمة رائعة وصف ملتون « الدفاع الأول » بأنه « أثر ... تتعذر إزالته بسهولة » ، وزعم أنه من وحى السماء ووضعه فى المرتبة التالية لمآثر كرومول ، الذى أنقذ حرية انجلترا (٩٦).

وقاوم فى شجاعة عمياء حركة إعادة شارل الثانى ، وعندما وصل جيش مونك إلى لندن ، وتردد البرلمان بين الجمهورية والملكية ، نشر ملتون فى فبراير ١٦٦٠ رساله موجهة إلى البرلمان ، تقع فى ١٨ صحيفة ، « الطريق الممهد السهل لإقامة جمهورية حرة ، ومزاياه المرتقبة بالمقارنة إلى مساوىء ومخاطر

(*) انظر الفصل السادس عشر — الفقرة الأولى .

إعادة الملكية فى هذه الأمة » . ومهرها فى جرأة وبساله باسمه (بقلم جون ملتون) وفيها ناشد البرلمان :

ألا يلوث ويهزأ بدم آلاف الانجليز المخلصين البواسل الذين خلفوا لناهذه الحرية ، التى اشتريت بحياتنا نحن . وماذاعسى أن يقول خيراننا عنا وعن إسم انجلترا عامة ، إلا أنهم على أحسن الفروض ، سيسخرون منا ، قدر السخرية بهذا الرجل الغبى ، الذى أورد (مخلصنا) ذكره ، والذى بدأ يبني صرحاً وعجز عن إتمام البناء ؟ أين صرح الجمهورية الشامخ الذى تباهى الانجليز بأنهم سيقيمونه ليتقلص ظل الملوك ، وتصبح انجلترا رومة أخرى فى الغرب ؟ .... ماهذا الجنون الذى اعترى هؤلاء الذين يستطيعون فى شرف وكرامة أن يدبروا شئونهم بأنفسهم ، حتى يحولوا كل هذه السلطات إلى شخص رجل واحد ! ياللجبن والنذالة أن نحسب أن مثل هذا الفرد هو مناط حياتنا ، ونعلق علية كل سعادتنا وأمتنا وسلامتنا وخيرنا ، وبدونه لا يكون لنا وجود ، أو نكون مجرد أفراد كسالى بلداء أو أطفال ! إنه ليجدر بنا أن نعتمد على الله وحده ، وعلى أنفسنا نحن ، وعلى فضائلنا العملية وعملنا الجاد(٩٧) .

وتنبأ ملتون بأن كل (الاعتداءات القديمة) التى ارتكبتها الملكية ضد حرية الشعب سوف تعود وشيكا بعودة الملكية . وافترح أن يحل محل البرلمان (مجلس عام) يضم أقدر الرجال الذين ينتخبهم الشعب للعمل حتى الموت ، ولايخضعون للعزل إلا عند الإدانة بإحدى الجرائم ، ويجدد المجلس بانتخابات دورية . وعلى هذا المجلس ، على أية حال أن يوفر أكبر قدر ممكن من حرية الكلام والعبادة والحكم المحلى . واختتم ملتون رسالته بقوله : «أرجو أن أكون تحدثت إلى حد الإقناع إلى مجموعة كبيرة من الرجال الواعين المخلصين ، أو إلى بعض من قد يقيمهم الله من هذه المقاعد الحجرية ليصبحوا « أبناء الحرية » ، ويوفقهم ويجمعهم على قرارات حكيمة تقيم ما أعوج من أمورنا ، وتصلح ما فسد من أحوالنا ، وتعالج هذا الخلل العام

للتفشى فى الجمهور الذى أسىء استغلاله وأعوزه من يوجهه ويرشده(٩٨) » .

وتجاهل البرلمان هذا الالتماس الذى ينطوى على القضاء عليه . وظهرت النشرات المطبوعة التى تهاجم ملتون ، وحبذت إحداها شنقه وأصدر مجلس الدولة ، وهو آنئذ ملكى النزعة ، أمرا بالقبض على طابع رسالة ملتون ، وفصله من منصبه (السكرتير اللاتينى للمجلس) فكان جوابه على ذلك إنه أصدر طبعة ثانية مزيدة من الرسالة «الطريق الممهد السهل » (أبريل ١٦٦٠) وحذر البرلمان من أن الوعود التى يقطعها الآن شارل من اليسير أن تنقض بمجرد تثبيت دعائم السلطة الملكية الجديدة . وسلم بأن غالبية الشعب ترغب فى عودة شارل الثانى ، ولكنه دفع بأن الأغلبية ليس لها الحق فى استعباد الأقلية أو التحكم فيها . إنه لمن الأعدل .... إذا وصل الأمر إلى حد الفرض بالقوة ، أن ترغم الأقلية مجموعة أكبر منها على أن تعيد إليها حريتها. من أن تفرض الأغلبية على أقلية من الناس من بنى وطنهم أن يكونوا عبيدا أرقاء لهم ، بشكل يسىء إليهم أبلغ إساءة (٩٩) . وتكاثرت الهجمات والحملات على ملتون وناشدت إحداها الملك شارل الثانى ، وكان آنذاك فى بريدا أن يتذكر جيدا الإهانات التى وجهها ملتون من قبل فى رسالته « محطم الصور » وغيرها ، إلى والده شارل الأول . واقترحت أن يضم ملتون إلى قائمة قتلة الملك الفعليين ، لأنه يستحق الإعدام(١٠٠) .

وقبل أن تصل هذه النشرة إلى شارل الثانى ، كان قد أبحر هو بالفعل إلى انجلترا ، وفى ٧ مايو ، ودع ملتون أولاده وآوى إلى مخبأ مع أحد الأصدقاء . ولكن كشف أمره وأودع السجن وبات مصيره لمدة ثلاثة أشهر مرهونا بما يقرره البرلمان الملكى ورأى كثير من الأعضاء أنه إذا كان ثمة من يستحق الإعدام ، فهو ملتون . وكان هذا متوقعا . ولكن مارفل دافينانت وبعض الأعضاء الآخرين توصلوا إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته وبصره المكفوف فاكتفى البرلمان بالأمر بإحراق بعض كتب بعينها من مؤلفاته ، حيثما وجدت . وأطلق سراحه فى ١٥ ديسمبر ، فاتخذ دارا

فى هلبورن ، انتقل إليها هو وأولاده، حيث انصرف — بعد أحد عشر عاما صاخبا عصيبا مضطربا ، عن النشر ، إلى الفترة الثانية من نظام الشعر ، وهى فترة بالغة الروعة والعظمة .

٧ — الشاعر العجوز : ١٦٦٠ — ١٦٦٧

وجد ملتون بعض السلوى والعزاء فى العزف على الأرغن وفى الغناء ، ويقول أوبرى « كان صوته رخيما رقيقا[١٠١] » وفى ١٦٦١ انتقل إلى دار أخرى ، وفى ١٦٦٤ استقر به المقام نهائيا فى بيت فى Artillery Walk ، فيه حديقة صغيرة استطاع أن يتمشى فيها دون أن يقوده أحد سوى يديه وقدميه . وكثيرا ماقدم إليه أبناء أخته لزيارته ومعاونته ، وقد نسوا ماكان لهم من ضرب فى سابق الأيام ، كما جاء إليه الأصدقاء ليقرأوا له ، أو يكتبوا ما يمليه عليهم . وتولى بناته الثلاث خدمته بصبر نافد وجهد جهيد . وكانت كبراهن — آن — عرجاء شوهاء لكناء . وكانت ديبورا تتولى له الكتابة ، وتعلمت هى وأختها مارى قراءة اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية والإيطالية والأسبانية ولو أنهما لم تكونا تفهمان ماتقرآن[١٠٢] . والحق أن أيا منهن لم تذهب قط إلى مدرسة ، ولكنهن تلقين بعض الدروس الخاصة . ولكن لم يحظين من التعليم إلا بأقل نصيب ، على أحسن الفروض وباع ملتون معظم مكتبته قبل وفاته ، لأن بناته لم تعنين بالكتب إلا قليلا . وشكا من أنهن بعن الكتب خفية ، وأنهن أهملن شأنه فى وقت الحاجة والشدة ، وأنهن تأمرن مع الخدم على مغالطته وسلبه عند شراء حاجيات المنزل[١٠٣] ، ولم يشعر البنات بالسعادة فى هذا البيت الكئيب ، مع والد قاس كثير المطالب سريع الغضب . ولما سمعت ابنته مارى بأنه يرتب لزواج جديد قالت : « ليس ثمة أبناء تستحق أن تسمع عن زفافه ، ولكن النبأ الجدير بالاستماع هو نبأ وفاته »[١٠٤] . واتخذ ملتون فى ١٦٦٣ ، وهو آنذاك فى الخامسة والخمسين ، زوجة ثالثة ، هى اليزابث منشول Mashull ، وكانت فى الرابعة والعشرين من العمر . وتولت خدمته

باخلاص وأمانة حتى آخر أيام حياته . وبعد سبع سنوات مع زوجة الأب التى وصفها أوبرى بأنها « وديعة مسالمة مرحة مقبولة »(١٠٥) هجر البنات الثلاث منزل والدهن ، ليتعلمن ، على نفقة ملتون بعض الحرف .

وكانت عودة الملك قد كلفته كثيراً ، وكادت أن تكلفه حياته ، ولكنها مهدت الطريق لنظم « الفردوس المفقود » . فلولاها ربما أفنى ملتون نفسه فى التراشق بالنشر فى المعركة ، لأن « المقاتل » كان فى مثل قوة « الشاعر » فى شخصه . وبرغم هذا كله ، لم يودع ملتون قط الأمل فى أن يكتب لانجلترا شيئاً تتغنى به لقرون قادمة . وفى ١٦٤٠ أعد بيانا بموضوعات يمكن أن تكون ملحمة أو دراما ، كان من بينها موضوع خطيئة آدم (خروجه من الجنة) ، وأساطير الملك آرثر (ملك بريطانيا الذى يفترض أنه عاش فى القرن السادس ق . م ، وبطل المائدة المستديرة) وتأرجح بين اللاتينية والإنجليزية ، بأيتهما يكتب ، وحتى حين قرراره على « الفردوس المفقود » ، موضوعا له ، فكر فى أن يكتبه على شكل مأساة إغريقية ، أو رواية دينية ، على غرار روايات العصور الوسطى ، وفى أوقات مختلفة نظم بعض أبيات أو مقطوعات أدخلت فيما بعد فى القصيدة . ولم يتسن له إلا بعد وفاة كرومول ، أن يجد فسحة من الوقت بوميا ، ليكتب الملحمة ، وفى ١٦٥٨ فقد بصره تماما .

فى الأيام السود ، وألسنة السوء ، ولو أنها ولت ، فقد لفنا الظلام واكتنفتنا الأخطار من كل جانب(١٠٦) .

وتواردت على ذهنه الأبيات ، حين كان يرقد عاجزاً أرقا ، ويكاد ينفجر بها . فينادى على من يكتب له قائلا : « إنه يحتاج إلى من يحلبه(١٠٧) » . وكانت تنتابه حمى الشعر ، فيملى أربعين بيتا « فى نفس واحد » ، ثم يجد فى تصحيحها عندما تعاد تلاوتها عليه . ويحتمل ألا تكون ثمة قصيدة نظمت بمثل هذا الجد والكد والشجاعة والجراءة . وداخل ملتون شعور قوى بأنه يمثل لانجلترا هوميروس واشعيا معا ، حيث اعتقد بأن الشاعر

صوت الله ، وأنه نبي أوحى إليه أن يعلم الناس .

وفى ١٦٦٥ ، حين انتشر الطاعون بلندن ، اتخذ التدابير صديق سجين من الكويكرز ، هو توماس الوود ، لنقل ملتون ليقيم فى « كوخه المكون من عشر حجرات فى « كالفونت سانت شيل فى بكنجهامشير » . وهناك فى هذه « المقصورة الجميلة » أكمل الشاعر « الفردوس المفقود » ولكن من ذا الذى يقدم على نشرها ؟ لقد كانت لندن فى اضطراب بالغ فى ١٦٦٥ ـ ١٦٦٦ بسبب الحريق الذى جاء فى أعقاب الطاعون ، وإذا كان ثمة شىء من الفرح والمرح باق ، فهو عودة الملكية فى صخبها وعربدتها . وفى حالة نفسية ليس معها مجال للملحمة من ١٠٥٥٨ بيتا عن الخطيئة الأولى . لقد حصل ملتون من قبل على ألف من الجنيهات عن رسالته « دفاع الشعب الإنجليزى » أما الآن ، فى ٢٧ أبريل ١٦٦٧ ، فقد باع كل حقوقه فى « الفردوس المفقود » إلى الناشر صمويل سيمونز لقاء خمسة جنيهات نقداً ، مع الاتفاق على دفعات أخرى قيمة كل منها خمسة جنيهات ، يتوقف تسديدها على ما يباع من الكتاب ، فكان كل ما حصل عليه هو ١٨ جنيها(١٠٨) . ونشرت القصيدة فى أغسطس ١٦٦٧ . وبيع منها فى العامين الأولين ١٣٠٠ نسخة ، وفى الأحد عشر عاما الأولى بيع ٣٠٠٠ نسخة . وربما لا يقبل على قراءة القصيدة بأكملها مثل هذا العدد من القراء فى أية سنة فى أيامنا هذه ، فليس لدينا فراغ كبير ، حتى لقد اخترعنا كثيرا من الأدوات التى توفر الجهد .

وتشترك « الفردوس المفقود » مع « الياذة فرجيل » ، فيما أصاب كلتيهما من نكسة وتعويق ، لظهورهما بعد الياذة هوميروس ؛ فان مشاهد المعركة والمحاربين الخارقين للطبيعة يفقدون قوتهم وسحرهم ، اذ كونهم تقليدا ومحاكاة . ولا ريب فى أن هوميروس قد نماذج قديمة ، ولكننا اسيناها ولم نعد نذكرها ، وذهب جونسون إلى أن « الفردوس المفقود » ، بطبيعة موضوعها ، تمتاز على ما عداها ، بأنها ممتعة مشوقة للجميع دائما « ولكنه

اعترف بأن » أحدا لم تساوره الرغبة فى أن تكون أطول مما هى(١٠٩). أن موضوع « الخطيئة الأولى للإنسان . وثمار الشجرة المحرمة التى جلب مذاقها القاتل الموت والفناء على العـــالم ، وجلب علينا كل الكروب والويلات » ، كان موضوعا مناسبا إلى حد كبير ، لأيام شباب ملتون ، حين كان يتلقى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وحين كانت الجنة والنار ، وللملائكة والشياطين ، هى نسيج التفكير اليومى . أما اليوم فان موضوع القصيدة أكبر عائق فى سبيلها ، إنها قصة خرافية تروى للشبان فى أحدعشر قسما ، وأن الاستمرار فى مشاهدة مثل هذا العرض الطويل اللاهوت من البداية حتى النهاية جاف قاس عتيق ، ليتطلب اليوم جهدا شاقا متصلا . وما كان الهراء ليسبغ عليه يوما مثل السمو والرفعة قط . ان عظمة المشهد وجلاله ، ومعانقة الجنة والنار والأرض ، والانسياب الفخم المهيب للشعر المرسل ، ومعالجة الموضوع المعقد ببراعة فائقة ، والوصف الرقيق الجديد للطبيعة ، والمحاولة الموفقة لأسباغ الوقعية والشخصية على آدم وحواء ، وكثرة القطع الشعرية البالغة الروعة والقوة ، كل أولئك بعض الأسباب التى جعلت من « الفردوس المفقود » أعظم قصيدة فى اللغة الإنجليزية .

وتبدأ القصه فى جهنم حيث الشيطان على هيئه طائر « ضخم الجسم » ، ذى جناحين مبسوطين ، ينصح ملائكته الهابطين بألا ييأسوا :

لم يضع كل شىء ، فان الإرادة التى لاتقهر ، وتدبر الأخذ بالثأر والكراهيه التى لايخبوا أوارها أبداً ، والشجاعه التى لاتخضع ولاتستسلم ، أما أن تثنى متوسلة للرحمه ، على ركبتين ضارعتين ، وتعظم من سلطانه . . . فهذا أمر دنىء حقا هذا خزى وعار أنكى من هذا السقوط ويبقى العقل والروح ولا سبيل إلى قهرهما(١١٠) . . .

وكأنى بهذه الأبيات تردد صدى كرومول وهو يتحدى شارل الأول ، وصدى ملتون وهو يتحدى شارل الثانى ؛ وثمه عدة قطع فى وصف الشيطان تذكرنا بملتون :

عقل لايغير منه زمان أو مكان ، فالعقل راسخ فى مكانه ، يستطيع فى نفسه أن يجعل من الجنه جحيما ، ومن الجحيم جنه (١١١) .

وفى الأجزاء القديمه من القصيدة نجد أن فصاحه ملتون أغرته بأن يرسم لابليس صورة تكاد تتسم بالود والعطف ، وكأنه زعيم ثورة ضد السلطة الرسمية الاستبدادية . وتخلص الشاعر من أن يجعل الشيطان بطل الملحمة بتصويره ، فيما بعد ، بأنه «أبو الأكاذيب» الذى « يجثم مثل ضفدع الطين» أو كالأفعى التى تنزلق ملتوية فوق الوحل(١١٢) . ولكن فى هذا القسم من الملحمه نفسه ينهض الشيطان مدافعا عن المعرفه :

المعرفه محرمه محظورة ؟ لماذا ينفس عليهما ربهما ذلك ؟ هل تكون المعرفه اثما ؟ أو تكون فناء ؟ هل يعيشان (آدم وحواء) على الجهل وحده ؟ أو أن حالتهما السعيدة هى دليل طاعتهما وإيمانهما ؟ سأثير فى عقليهما مزيدا من الرغبه فى المعرفه(١١٣) . . .

ومن ثم يحاور حواء وكأن كنيسة عقلانيه تحمل على كنيسة جامدة تعيش فى ظلام الجهل ، تقف عقبه كأداة فى طريق انتشار المعرفه :

لماذا إذن كان هذا التحريم ؟ . لماذا كان ، إلا ليرهب عباده ويبقيهم على حالة من الإنحطاط والجهل ، إنه يعلم أنه فى اليوم الذى تأكلان من تلكما الشجرة ، فان أعينكما التى تبدو الآن صافيه ولكنها كليلة ، سوف تنفتح وتصفو تمام الانفتاح والصفاء ، ومن ثم تكونان مثل الآلهه(١١٤) .

ويأمر روفائيل ، وهو أحد الملائكة ، آدم ، بأن يكبت من حبه لاستطلاع الكون ، فليس من الحكمة أن يتطلع الانسان إلى معرفة ماوراء نطاقه الفانى(١١٥) فالإيمان أعقل من المعرفة .

وكان لنا أن نتوقع ألا يفسر ملتون « الخطيئة الأولى » بأنها رغبة فى المعرفة ، بل أنها علاقة جنسية . أنه على النقيض من ذلك ، ينشد تسبيحة غير بيوريتانيه اطلاقا ، من أجل مشروعيه اللذة الجنسيه ، فى حدود الزواج ، ويصور آدم وحواء منغمسين فى مثل هذه القيم المادية ، مع

بقائهما على « حالة البراءة »(١١٦) ، ولكن بعد « الخطيئة » أى أكل الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة — بدأا يستشعران الخزى والعار فى الاتصال الجنسى(١١٧) . وهنا ينظر آدم إلى حواء على أنها مصدر كل الشر ، « ضلع أعوج بالطبيعة » ويرثى لأن الله خلق المرأة :

لماذا خلق الله فى النهاية هذه البدعة على الأرض ، هذه العلة الجميلة فى الطبيعة ، ولم يملأ العالم على الفور ، برجال مثل الملائكة ، دون إناث ، أو يجد طريقة أخرى لتوالد بنى البشر(١١٨) ؟ .

ومن ثم فان الإنسان الأول ، فى تاريخ الزواج فى الكتاب المقدس ، سرعان ما اصطنع ذريعة ليطلق الرجل زوجته فى سهولة ويسر ، وهنا نجد ملتون ينسى آدم ، ويكرر شعرا ما سبق أن ذكره نثرا ، عن خضوع المرأة خضوعا حقيقيا تاما للرجل(١١٩) . وسيعود إلى هذه اللازمة فى قصيدة « Samson Agonistes (١٢٠) » . فهى حلمه الأثير الحبيب إلى نفسه . وفى رسالته السرية « العقيدة المسيحية » دافع عن إعادة « تعدد الزوجات ، ألم يجزه العهد القديم . ألم يترك العهد الجديد هذا القانون الحكيم الشجاع دون إلغاء أو تعطيل ؟(١٢١) .

ومهما فسرت « مخالفة الإنسان الأول لأمر ربه » (الخطيئة الأولى) ، فقد ثبت أنها موضوع أصغر من أن يملأ اثنى عشر قسما ، لأن الملحمة تتطلب سلسلة من الأحداث والأعمال ، ولكن حيث أن ثورة الملائكة انتهت حين بدأت القصة . فان المسرحية لا تدخل إلى القصيدة إلا عن طريق الذكريات أو العودة إلى الماضى ، وهو صدى آخذ فى الذبول والزوال . ومشاهد المعركة موصوفة وصفا جيدا ، بما فى ذلك التصارع المناسب بالسلاح ، وشج الرؤوس وتقطيع الأوصال ، ولكن من العسير أن تشعر بالألم أو بنشوة الابتهاج لهذه الضربات الخيالية . وعلى غرار الكتاب المسرحيين الفرنسيين يطلق ملتون لنفسه العنان للخطابة ، فالجميع ابتداء من « الله » إلى حواء يخطبون ، ولم يجد الشيطان فى سمير جهنم ما يحول بينه وبين البلاغة وأنه

من المزعج حقا أن نعلم أنه حتى فى الجحيم سنكون مضطرين إلى الاستماع إلى محاضرات » .

« والرب » فى هذه القصيدة ليس هو التألق الذى يجل عن الوصف الذى تحس به فى « جنة دانتى » فهو فى القصيدة فيلسوف سكولاس (فيلسوف نصرانى من العصور الوسطى) ، يدلى بأسباب مطولة غير مقنعة ، لأنه وهو القادر على كل شىء ، يجيز للشيطان أن يوجد ، وأن يغوى الإنسان ، متنبئا ، طوال الوقت ، بأن هذا الإنسان سيذل ويخضع ، ويجلب على البشرية بأسرها قرونا من الخطيئة والشقاء والتعاسة. ويحاج بأنه بدون حرية الإثم لا تكون الفضيلة ، وبدون التجربة لا توجد الحكمة والتعقل ، ويرى أنه من الأفضل أن يواجه الإنسان الإغراء ويقاومه ، من عدم التعرض للاغراء اطلاقا ، دون أن يتوقع أبدا أن الصلوات سوف تتوسل إلى الله ألا يقود الإنسان إلى الغواية والإغراء . ومن ذا الذى يطيق التعاطف مع تمرد الشيطان على هذا السادى الذى لا يصدق ؟ (السادية : الابتهاج بالقسوة المفرطة) .

وهل كان ملتون يؤمن حقا بهذا الهول الجبرى المقدر ؟ . من الواضح أنه كان كذلك ، لأنه بسط الكلام فيه ، لا فى « الفردوس المفقود » فحسب ، بل فى رسالته المرية « العقيدة المسيحية » كذلك ١٢٢) . أى أن الله ، قبل خلق الإنسان بزمن طويل ، قدر أى الأرواح يكتب لها الخلاص ، وأيها قدر عليها العذاب المقيم . وانطوت هذه الرسالة ، على أية حال ، على شىء من الهرطقة . ولم ينشرها ملتون قط ، ولم يكشف أمرها إلا فى ١٨٢٣ ، ولم تصل إلى المطبعة إلا فى ١٨٢٥ .

إن هذه الرسالة وثيقة جديرة بالذكر ، فهى تبدأ فى إطار من التقوى ، ودون جدل أو لجاجة ، بافتراض أن كل كلمة فى الكتاب المقدس هى وحى من عند الله . وسلم ملتون بأن نصوص الكتاب المقدس قد طرأ عليها « التزييف والتشويه والتبديل » ولكنها حتى فى صيغتها الراهنة ، من صنع

الله . وهو لايجيز غير التفسير الحرفى الأمين . فإذا جاءت الأسفار بأن « الرب » ، إستراح ، أو خاف ، أو ندم ، أو كان غاضبا ، أو حزينا ، فإنه ينبغى أن تؤخذ هذه الألفاظ بمعناها الظاهرى ، وألا تخفف على أنها مجازات ، بل كذلك أجزاء الجسم والصفات الجسدية التى تنسب إلى « الله » يجب قبولها على أنها حقيقية من الوجهه الماديه(١٢٣) . ولكن « الله » بالإضافه إلى هذا الكشف الظاهرى الذى جاءت به الأسفار المقدسه والذى يكشف به عن كنهه فإنه ، زودنا بوحى داخلى ، هو الروح القدس الذى يتحدث فى داخل قلوبنا . وهذا الوحى الداخلى « الملك الخاص لكل مؤمن ، أسمى بكثير ... ومرشد أصدق ، من الأسفار المقدسة(١٢٤) . ومهما يكن من أمر ، فإن ملتون يقتبس من الكتاب المقدس ، مايؤيد ما يسوق من حجج ، على أنه البرهان الحاسم الدامغ .

وعلى أساس من الأسفار المقدسة ، ينبذ ملتون نظرية الثالوث الأقدس التقليدية ، ويؤثر عليها هرطقة آريوس (الذى يقول بأن المسيح ليس من مادة الله ، بل هو خير خلقه فقط) ، فالمسيح بكل معنى الكلمة ، ابن الله ، ولكن الأب ولده فى زمن ما ، ومن ثم فهو غير معاصر للأب وليس متساويا معه أبدا . فالمسيح هو الوسيط الذى خلقه الله على أنه « الاوجوس أى الكلمة » الذى سيخلق منها كل من عداه . ولا يسلم ملتون « بالخلق من العدم » ، فعالم المادة ، مثل عالم الروح ؛ إنبثاق أو فيض سرمدى من المادة الآلهية . وحتى الروح نفسها ، فهى مادة رقيقة جدا أثيرية ، ولايجوز تمييزها تمييزا حادا عن المادة . وفى النهاية ، المادة والروح ، والجسم والنفس فى الإنسان ، شىء واحد(١٢٥) . وثمة شبه كبير يستحق الملاحظة بين هذه الآراء ، وآراء هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٨٩) وسبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧)، وقد نرى أنهما فارقا الحياة فى نفس العقد من السنين الذى مات فيه ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) . وربما اطلع ملتون على مؤلفات هوبز التى كان لها دوى ملحوظ فى بلاط شارل الثانى .

وظلت عقيدة ملتون خليطا غريبا من التوحيد والمادية ، ومن مذهب حرية الإرادة عند جاكوب أرمينيوس (لاهوتى برتستانتى هولندى (١٥٦٠ — ١٦٠٩) ، ومن مذهب الجبرية أو القضاء والقدر عند كلفن . ويبدو فى كتاباته أنه كان رجلا متعمقا فى أمور الدين . ومع ذلك لم يذهب قط إلى الكنيسة حتى قبل فقـــد بصره ، ولم يقم الشعائر الدينية فى بيته(١٢٦) . وكتب دكتور جونسون : « فى توزيع ساعاته لم يخصص وقتا للصلاة ، وحده ، أو مع أهل بيته . وحذف الصلوات العامة ، لقد حذف الصلوات جميعا ١٢٧) » . وازدرى رجال الدين ، ونعى على كرومول احتفاظه بعدد من رجال الدين تدفع الدولة رواتبهم ، على أنه لون من « عبادة الأوثان » ، يؤذى الدولة والكنيسة معا(١٢٨) . وفى أحد بياناته الأخيرة « بحث فى العقيدة الحقة ، والهرطقة والإنشقاق عن الكنيسة والتسامح ، وأمثل الطرق للحيلولة دون نمو البابوية » (١٦٣٣) عارض بطريق مباشر الاعلان الثانى الذى أصدره شارل الثانى عن التسامح (١٦٧٢) ، محذرا انجلترا من التسامح مع الكاثوليك وأنصار التوحيد ، أو أية شيعة أخرى لا تعترف بالكتاب المقدس أساسا وحيدا لمذهبها .

أن هذا الرجل الذى تفوح منه رائحة الهرطقة ، عرف عنه مقاومة رجال الدين وتدخلهم فى الشئون العامة والخروج على الكنيسة ، هو نفس الرجل الذى أخرج للعقيدة المسيحيه أكرم شرح حديث لها .

٨ — السنوات الأخيرة : ١٦٦٧ - ١٦٧٤

احتفظ ملتون مع دخوله فى العقد السابع من العمر ، فيما خلا فقد البصر ، بصحه جسمه وإعتداده بنفسه ، وهما اللذان دعماه وساندماه فى كل الصراعات الدينيه والسياسة التى خاضها . ويصفه أوبرى بأنه « نحيل ... متوسط القامه » ... فهو جسم جميل متناسب الأجزاء ، وبشرته فوق المتوسطه ... صحيح الجسم ، لا يشكو علة ، قلما يتناول الدواء ، وكل مافى الأمر أن النقرس انتابه فى أخريات أيامه(١٢٩ » . وكان شعره الذى فرقه

فى الوسط يتدلى على كتفيه فى حليقات أو عقصات • ولم تنبىء عيناه عن فقد بصره • وظلت مشيته ثابته منتصبه • وكان إذا غادر بيته بدا على زيه شدة الحساسه والكلف بملابسه ، وتمنطق بسيف، لأنه كان فخورا ببراعته فى المبارزة واللعب بالسيف(١٣٠)• وأضفت عليه الثقة الزائدة عن الحد وقارا ، وعزوفا عن المرح • ولكنه كان مع ذلك حلو الحديث إلا إذا لقى معارضه • ولم يكن بيوريتانيا بكل معنى الكلمه : كان عنده شعور البيوريتانيين بالإثم ، والجحيم والإصطفاء والأسفار المقدسه التى لا تخطىء ، ولكنه استساغ الجمال واستمتع بالموسيقى ، وألف روايه ، واحتاج إلى عدة زوجات ، وتخلفت أثارة من حيويه عصر اليزابث وسط رزانته الخاليه من المرح • وكان أنانيا ، أوأنه كشف عن أنانيته الطبيعيه إلى حد الافراط غير المألوف • إنه كما قال أنطونى رود : « لم يكن يجهل مواهبه(١٣١) »، وكما قال جونسون « قل من الرجال من كتب كثيرا وامتدح قليلا من الناس ، مثله(١٣٢) » ، وربما تطلبت العبقريه أنانيه يدعمها اعتداد داخلى بالنفس ، حتى تقف فى ثبات فى وجه الجمهور • إن أثقل ما يمكن قبوله فى ملتون هو طاقه الكراهيه والبغضاء عنده ، وإساءته المفرطه لمن اختلفوا عنه وذهب إلى أنه ينبغى علينا أن نصلى من أجل اعدائنا ، ولكن ينبغى أيضاً أن نستنزل اللعنات جهاراً على أعداء الله وأعداء الكنيسه ، وكذلك على الأخوان المضللين الزائفين،أومن يقترفون الآثام الفظيعه ضد الله ، أو حتى ضد أنفسهم(١٣٣) » • أما الوجه الآخر لهذه العاطفه المشبوبه ، فهو شجاعه النبى فى استنكار زمانه ، فإنه بدلا من أن يكمم فاه ما اقترن بعودة الملكيه من شغب وصخب ، هاجم فى عنف ، غراميات البلاط « فى عهد شارل الثانى » « والشهوات والاغتصاب » فى القصور ، و « البسمات المشتراة على شفاه بنات الهوى » و « المسرحيات الخليعه أوحفلات الرقص فى منتصف الليل(١٣٤) » •

وكأنما كان ملتون يقذف بآخر سهم فى جعبته تحديا للعصر المظلم ،

حين نشر فى يوم واحد (٢٠ سبتمبر ١٦٧٠) فى غير ماشفقه ولا رحمة ، اثنين من أعماله : « الفردوس المستعاد » و « شمشون الجبار » . فى ١٦٦٥ بعد أن انتهى توماس الوود من قراءة ملحمة ملتون الأولى تحداه قائلا : « لقد تحدثت هنا كثيرا عن الفردوس المفقود ، فماذا عساك تقول الآن عن الفردوس الذى وجد ؟[١٣٥] » ، وطرقت الفكرة ذهنه بشدة ، ولكنه تساءل : كيف يعرض استعادة الفردوس فى أيه مرحلة فى التاريخ ، فإن موت المسيح نفسه لم يطهر الإنسان من الجريمة والشهوة والحرب ولكنه فكر أنه رأى فى مقاومة المسيح لاغراء الشيطان ، وعدا بأن جانب الله فى الإنسان لابد يوما أن يقهر جانب الشيطان فى الإنسان نفسه ، ويهيئه للحياة تحت حكم المسيح والعدالة على الأرض .

ومن ثم فان ملتون فى الأقسام الأربعة من « الفردوس المسترد » ، لم يركز فى حياة المسيح على الصلب ، بل على « تجربة الاغراء فى البرية » ، حيث يقدم الشيطان للمسيح « ولدانا ... أجمل من سقاة الآلهة » ، ثم « الحور والعذارى الفاتنات ، وسيدات من حدائق التفاح الذهبى » ثم يعرض عليه المال والثراء — ولكن أولئك دون جدوى . ثم يريه الشيطان رومه الإمبراطورية تحت حكم تيبريوس المنهوك المكروه الذى لم يعقب ، فهلا يريد المسيح أن يقود ثورة بعون من الشيطان ، وينصب نفسه امبراطور على العالم ؟ . ولما لم يرق هذا فى عيني يسوع ، ولم يستهو قلبه فإن الشيطان ، أراه أثينا بلد أرسطو وأفلاطون ، فهلا رغب فى اللحاق بهما ليكون فيلسوفا ؟ ثم يدخل المسيح والشيطان فى حوار غريب حول مزايا الأدب اليونانى والعبرى . فينحاز المسيح إلى جانب أنبياء وشعراء بني إسرائيل على أنهم أسمى بكثير من اليونانيين :

أخذت اليونان عنا هذه الفنوق ، ولم تحسن تقليدها[١٣٧] .

وبعد قسمين من الملحمة استغرقهما الحوار ، أقر الشيطان بهزيمته ، وبسط جناحيه وطار ، على حين تتجمع فرقة من الملائكة حول المسيح

المنتصر ، وتنشد :

الآن انتقمت لآدم المغدور به ، وبالتغلب على الإغراء استعدت الفردوس المفقود(١٣٨) .

ولم يرو ملتون لنا القصة بمثل الروعة الفياضة الرنانة التى تجلت فى الملحمة الأولى الكبرى ، ولكن بمثل براعته فى الشعر ، وميله إلى المحاجة ، وهما أمران معهودان فيه ، كما كشف فى القصة طوال الوقت عن سعة معلوماته فى الجغرافية والتاريخ . ولم يستمر فى القصة حتى حادث صلب المسيح ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه لم يتفق مع القائلين بأن موت المسيح هو الذى فتح أبواب الجنة من جديد . فالفضيلة وضبط النفس وحدهما اللذان يجلبان السعادة . ولم يدرك ملتون قط لماذا رفضت إنجلترا أن تأخذ بمأخذ الجد ، إعادة كتابة الأناجيل على هذا الشكل المضحك ، وذهب إلى القول بأن الملحمة الثانية ليست أقل من الملحمة الأولى ، اللهم إلا من حيث مداها(١٣٩) . وكان لا يطيق أن يسمع أن « الفردوس المفقود » تفضل « الفردوس المسترد »(١٤٠) .

وتألقت عبقرية ملتون لآخر مرة فى « شمشون أجونست — الجبار ». إنه بعد أن تحدى هوميروس وفرجيل ودانتى ، بملحمته ، نراه الآن يتحدى أخيللس وسوفوكليس برواية ارتضت كل قيود المأساة (التراجيديا) اليونانية . وهو فى المقدمة يطلب إلى القارىء أن يلحظ أن المسرحية (الدراما) تخضع للوحدات التقليدية القديمة ، وتتجنب « خطأ الشاعر فى خلط المادة الهزلية (الكوميدية) بأحزان المأساة ووقارها ورهبتها ، أو فى إدخال شخوص تافهين متبذلين . وهنا نجد ملتون يولى ظهره لعصر النزابث ، ويشق طريقه إلى اليونان ولا يبعد كثيراً عن النماذج اليونانية . إن شمشون الذى فارقته قوته بعد أن حلقت دليلة سبع خصلات من شعر رأسه ، وقلع من أوثقوه من الفلسطينيين عينيه ، نقول أن شمشون هذا لا يحكى فقط ، أوديب المكفوف فى كولونس ، بل أنه يحكى ملتون نفسه يعيش فى عالم بغيض لا يرى منه أثرا نـ

« ضريرين أعداء ، أواه هذا شيء أسوأ من الأغلال أو الزنزانة أو التسول ، أو العجز بفعل الهرم ، فالضياء ، وهو فاتحة صنع الله ، منطفىء أمامي ، ولا أملك من مباهجه شيئاً . ربما كان يهديء من آلامي وأحزاني ، آه ، أيه ظلام والقتام والحلكة وسط وهج النور عند الظهيرة ، ينشر كسوفا كليا لاخلاص منه ، دون أي أمل في بزوغ النهار(١٤١) ».

والحق أن الرواية كلها يمكن تفسيرها بأنها قصة رمزية متناغمة متماسكة : فلتون هو شمشون يناضل ويتعذب في محنته ، وبنو إسرائيل المقهورون هم البيوريتانيون ، أي الشعب المختار حطمته عودة الملكية ، والفلسطينيون هم الملكيون الوثنيون المنتصرون ، وهدم هيكلهم يكاد يكون تنبؤا « بالثورة الجليلة » التي أطاحت بآل ستيورات « الوثنيين » في ١٦٨٨ . أما دليلة فهي المرأة الخائنة ماري باول ، Powell . وتكرر فرقة الموسيقى (الكورس) حجج ملتون ومناقشاته من أجل الطلاق(١٤٢) . ويكاد ملتون يكون قد تخلص من غضبه وحقده بترديد تلك الحجج والمناقشات على لسان شمشون الذي يتقبل نهايته التي لا بد آتية :

« سوف تمضي سلالة المجد ، أما سلالة الخزي والعار التي ستبقى فسألحق بها وشيكا(١٤٣) ».

وفي يوليه ١٦٧٤ أحس ملتون بأنه يضعف وتنحط قواه ، ولأسباب لا نعلمها أهمل تدوين وصيته . وبدلا من ذلك ، وجه إلى أخيه كريستوفر وصية « شفوية » تكاد تكون غير مسطورة ، نقلها كريستوفر على الوجه الآتي :

« أخي ، إني أترك نصيبي من تركة مستر باول Powell والد زوجتي السابقة ، لأولادي العاقين ، ولكني لم أتسلم شيئاً منه ووصيتي ومقصدي ألا يستولوا على أي جزء آخر من ضيعتي أكثر من الجزء المذكور ، ومما ضيعت من أجلهم ، غيره ، لأنهم قصروا أشد التقصير في القيام بواجبهم نحوي ، أما بقية ضيعتي فأني أضعها تحت تصرف زوجتي الحبيبة النزاهة »(١٤٤) وأعاد ملتون هذه الوصية الشفوية على أسماع زوجته وأناس غيرها في أوقات مختلفة .

وتشبث ملتون بالحياة فى عزيمة قوية . ولـكن آلام النقرس اشتدت عليه يوما بعد يوم حتى شلت يداه وقدماه . وفى ٨ نوفمبر ١٦٧٤ أنهكت الحمى قواه ، وفارق الحياة فى تلك الليلة . وعاش ملتون خمسا وستين سنة وسبعة أشهر . ودفن فى مقبرة كنيسة الأبرشية ، فى سانت جيل كربلجيت ، بجوار والده .

وكان القانون الإنجليزى يعترف بالوصايا الشفوية حتى ١٦٧٧ ، ولـكن المحاكم كانت تدقق فيها تدقيقاً شديداً . واعترض البنات على وصية أبيهم ، ورفضها القاضى ، وأعطى ثلثى المال للزوجة ، والثلث الباقى ، وقدره ٣٠٠ جنيه للبنات . أما الحصة فى أموال باول فلم يدفع منها شىء قط .

وأنا لنعلم عن ملتون أكثر كثيراً مما نعلم عن شكسبير ، ولا بد من تدوين الـكثير عنه حتى نخرج له صورة حقيقية أو نصفه وصفا كاملا . ولـكنا لا نزال نجهل مايكفى للحكم عليه — إذا كان هذا ممكنا بالنسبة لأى رجل . فنحن لا نعلم ، بشكل كاف ، لماذا أثار بناته إستياءه إلى هذا الحد ، ولا كيف عاملن زوجته الثالثة التى واسته وأراحته فى سنى شيخوخته ، ولـكنا نستطيع فقط أن نبدى الأسف على أنه عجز عن كسب حبهم . ولسنا ندرى بالتفصيل لماذا ارتضى أن يـكون رقيبا عـلى الصحافة أيام كرومول ، بعد دفاعه المجيد عن « حرية المطبوعات » . ويمـكن أن نعزو كثيراً من تعسفه وبذاءته فى الخصومة إلى أحوال العصر ومعاييره . وقد نغتفر غروره وأنانيته باعتبارهما الركيزة التى تستند إليها العبقرية إذا لم تجد إلا القليل من ثناء الدنيا واطرائها . ولسنا بحاجة إلى الاستمتاع به رجلا ، والإعجاب به شاعراً ، وواحداً من أعظم الناشرين الإنجليز .

إن الذين يعتزمون قراءة الفردوس المفقود من البداية إلى النهاية ، سيتولاهم الدهش إذ يجدون أنها غالبا ما تحلق فى آفاق عالية من الخيال والبيان ، حتى ليغتفرون ان عاجلا أو آجلا ، الصفحات المملة المحشوة بالنقاش أو العلوم أو الجغرافيا ، وكأنها بمثابة فترات لالتقاط الأنفاس من من فرط التأثر والتحليق . وأنه لمن الحمق أن نتوقع أن تبقى هذه التحليقات

المفرطة فى التناغم والعاطفة بصفة مستمرة ، فقد يكون هذا فى القصائد القصيرة . وهناك فى نثر ملتون وبخاصة فى « الأريوباجيتيكا » ، قطع ، لايسمو عليها ، فى قوتها وروعتها ، وفكرها وموسيقاها ، شىء من سلسلة الأدب الدنيوى فى العالم .

وأضفى عليه معاصروه شهرة يشوبها الحسد والتذمر ، وفى الفترة التى صعد فيها حزبه إلى منصة الحكم ، كان مناضلا ناثراً ، ونسيت قصائده الغنائية الأولى . ونشر ملتون قصائده الكبرى فى عهد عودة الملكية ، ذلك العهد الذى احتقر شيعته ، ورضى له البقاء على قيد الحياة ، على كره منه . وعندما طلب لويس الرابع عشر من سفيره فى لندن أن يعدد له أحسن الكتاب الإنجليز الأحياء ، كان جواب السفير : لايوجد منهم من يستحق الذكر إلا ملتون الذى دافع من قبل ، من سوء الحظ ، عن قتل الملوك الذين كانوا آنذاك يشنقون أحياء أو أمواتا . وحتى فى هذا العصر المستهتر المشاغب ، على أيه حال ، نجد أن أشهر شعرائه ، جون دريدن ، الذى قال عنه ملتون من قبل أنه « ناظم قوافى جيد ، وليس بشاعر(١٤٥) » . نقول ان دريدن هذا ، اعتبر « الفردوس المفقود » « من أعظم وأروع وأسمى ماأبدع هذا العصر وهذه الأمة من قصائد(١٤٦) » . وبعد أن دالت دولة أسرة ستيورات عاد إلى ملتون مجده ومكانته الرفيعة . وأطنب أديسون فى إمتداحه فى مجلة « سبكتاتور » . ومنذ ذلك الوقت إزدادت صورة ملتون رفعه وقداسة فى ضمير بريطانيا (١٤٧) حتى ناجاه وردزورث فى ١٨٠٢ :

« أى ملتون ، ما كان أجدرك أن تكون حيا بيننا فى هذه الساعة . . ، أن روحك مثل نجم رحل عنا بعيدا ، لقد كان لك صوت يهدر كالبحر ، صاف مثل السموات المكشوفة ، صوت كريم حر » .

أن نفسه كانت مثل أثر باق ، قام بعيدا عن أقرب الناس إليه ، ولكن عقله خلق مثل السموات العلى ، فوق كل هموم البشر ، وصوته يدوى فى الأسماع مثل « البحر المتلاطم الأمواج » عند هوميروس .